إيناس بن مبارك

خيبة

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

خيبة

خيبة

رواية

إيناس بن مبارك

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2017م - 1438هـ

ردمك 978-614-02-3253-2

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف (9611+) 785107

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

إهداء

كتبتُ إهداءً طويلاً

لم أنسَ بهِ أحداً ذا كبِدٍ رطب،

حتى من غنّى أغنيتي المفضّلة،

ثم أيقنتُ أنّ بعض الخيبات لا تُهدى

ثم أدركتُ أنّ إهدائي ليسَ ذا معنى...

فعُذراً... فإنّي

مزّقتُ الورقة.

الكتابة عزاء، فادعُ معك من شئت من الخيبات، فأنتَ ميّت.

مُقَدِّمَة

فجر عيد ميلادي، دخلَ غرفتي وكنتُ في التغْفِيق من النّوم، أحسست به يسحب ورقةً من فوق مكتبي...

عندما استيقظتُ استفسر عن كآبتي في الكتابة:

– «ليس كلّ ما ترجوه تُدرِكه، ولا ما تُعلّقُ به الآمال يدوم... قرأتَ لي وصفاً عن المنيّة، وهي كم تغدو – لو تُدرك – قريبةً حين تسلبُ البهجة عن الوجوه، وليْت الرّوحُ تُوهَب لها كهديّة وتنتهي بذلك القصّة قبل فصل الخيبة».

حملت حقيبتي وخرجت...

العِطر الخامِل نفسه للوُرود علَى شُرفتِنا، ككلّ صباح، تِلك الشمس لا تسأمُ من أن توقْظني باكراً. رُغم أنّي لستُ بحاجةٍ لشيءٍ يُذكّرُني بأنّ النوم بِقاموسي قد مَحَت حِبرَه الذكريات.

في الطابق الثاني تماماً بالعِمارة السالِبة لإطلالتين، كعادتي أشتاق إلى نسيم إسطنبول الصباحيّ، لأنتفض من مكاني وأسحب الستائر البيضاء القديمة، وأفتح باب الشرفة، لا أذكر لماذا تسرقني كلّ صباح تلك العفويّة بالخروج وتسليط نظرة على الشارع، كأنّي أتأكدّ من أنّ لا شيء غيّر مكانه، من أنّ كلّ زهرة لا تزال جاثِية في الحالة نفسها التي تركتها عليها ليلة البارحة بعدَ أن تأخرتُ في النّوم...

أسرق نظرة إلى الأسفل لأتأكدّ من أنّ زهور «نيهان» لا تزال ترتدي الأبيض والأحمر، إنّها أزهار «الساردونيا» أو فلأُسمها كعادتي «الجيرانيوم» ذاك حينَ أتعمّد التمرُّد على الحروف، أتمرّد طمعاً في الهروب ليس إلاّ...

يميناً ككلّ يوم سألمح «أورهان» يُملي الأوامر على موظفته الحسناء «هيفين»، بتُّ أحفظ الأسماء رغم أنّي لم أدخل يوماً ذاك المطعم الخجول «موجفير» (Mücver)، أحياناً ألمحُ خلفه عمّال متجر «كوش» (Koç) دائبين على ترتيب المحلّ وتلميع الزجاج... ليس غريباً أن تدبَّ الحياة هُنا مع خيوط الشروق الأولى، فالكلّ يملكون رغبةً عجيبةً مع كلّ صباح ليقدّموا الأفضل – ما عَداي أنا – أحاول أن لا أنظر إلى وَاجهة الشرفة، لكنّ شجرة التوت تجذبني بزقزقة عصافيرها، لا أعلم لِمَ أحسّ أنّ هذه الشجرة مقرّ تجمّع لكلّ عصافير إسطنبول، أكره كلّ تلك الجلبة التي ستعلو شيئاً فشيئاً حتى المساء، خلفها تعلو مئذنة المسجد الذي أسميتُه في صِغري

بالمسجد الأخضر حينَ تعلّمت الألوان، المسجد الذي – حين تعلّمتُ القراءة – أدركتُ أنّه بُنيَ في عام 1491 ميلادي، كنتُ أُعجَب بالرقم كثيراً ولا أذكر السبب لذلك، ذاك المسجد الذي سُميّ كاسم الشارع المُقابِل لنَاظِري والذي يلتقي بشارع بيتي على مرمى نظري. تستوقفني تلك الساحة الصغيرة أو فلأُسمّها الحديقة التي تحولُ أغصان أشجارها بيني وبين رؤية المسجد بأكمله، هناك في رُكنٍ منها يُدوّي صوت زقزقة العصافير منبعثاً من شجرة التوت فأنتفض من شُرودي وأنتبه إلى أنّي أطلتُ المكوث هنا، فلا النّبع سيُغيّر مكانه ولا لوحة إعلانات نهاية الأسبوع ستتغيّر اليومَ فاليومُ هو الأربعاء...

عِمارتي، القابعة بشارع «تُركغوجو» (Türkgücü) والمُطلّةِ برُبعٍ على شارع «بالاسكا» (Palaska) بلوحة ترقيم زرقاء قديمة، ترسم بسمةً رقمها 57. انتبه إلى أنّي أقف على عتبة الشرفة أهُمُّ بالدخول ولم أفعل بعد...

هيَ غرفتي الآن لكنّها لم تكن كذلك في صِغري، فقد كانت مِلكَ والديّ، ليست بالحجم الكبير المزعج ولا بالصغير الذّي يخنق، لكنّها تنعم بأكثر من اللاّزم من أشعة الشمس، أكاد أجزم كلّ صباح أنّي أعيش في أقرب بُقعةٍ لنورِ الشمس. كثافة النّور هنا جعلت النباتات تتحدّاني لِترسم من غُرفتي لوحةً يغلب عليها اللّون الأخضر، رغم أنّي شخصيّة لا تَستَهوِيني الألوان في ديكور البيوت، فمفروشات غرفتي كلّها بيضاء، مِن الوسادة إلى الستّائر، وحتى الرّخام الذي بُسِطَ بالأرضية. سريري الذي لن أُرتّبه – ككلّ مرّة – تنام على حوافه بعض الروايات وقلمي الرصاص، بعضُها قرأته منذ مدّة طويلة لكنّي لم أُكلّف نفسي عناء ترتيبه مع كُتبي على الرّفوف الخشبيّة التي فرَشتُها بالدانتيل الأبيض. لم أكن يوماً بهذا الاستهتار في ترتيب أغراضي لكنّي منذ مدّة تغيّرت كلّ تفاصيل حياتي، فبات النظام لا يستهويني، حتى أنّ مكتبي أحياناً أفكّر بحرق كلّ ما عليه من أوراق، فقد أتعبت كاهله... ولا أذكر متى كانت آخر مرّة جلست إليه لأكتب...

* * *

لم تكن أوّل مرّة أسافر فيها، لكنها حتماً أوّل مرّة أحسّ أنّي انتقلت بالزمن إلى زمن لا وقتَ فيه.

دَلَفنا البيت، كنتُ أحمِل حقيبتي التي توهِمُ أنّي في عطلةٍ قصيرة المدى، وأجرّ حقيبة أخي الذي يصغرني بأربع سنوات «طوفان»، بينما آثَر هو أن يُمسك بِيمين والدتي ويسيرا قبلي ببضع خطوات. ذلك البيت الذي استمتُّ وأنا أحاول التأقلم على زواياه.

لم أسمع من قبل عن الجزائر كثيراً، ولم أكن أدرك إلى أيّ المستويات قد وصلوا ثقافةً وتفكيراً، إنّما الصورة التي لقيتُها في الأوّل لم تكن ذاتها التي ظلّت معي خلال إقامتي هناك.

كان البيت مؤثثاً بطابع شرقي بامتياز، أرضيته كلّها كانت رخاماً أبيض، بِخلاف غرفتي التي كانت أرضيتها كرقعة شطرنج، ربّما لذلك باتت حياتي من يومها صعبة كدَورِ شطرنج مُستعصٍ.

كان البيت – والذي انتبهتُ إلى رقم بابه فَورَ وصولنا والذي كان كدمعة رقمها ستّة 06 – واسعاً جداً لا يُطاق، (أو ربّما لبرودة مشاعر من فيه). ما إن اجتزنا الباب حتى قابلتنا طاولة فاخرة وُضِعت فوقها مزهريّة من الخزف الصينيّ القديم الشديد الدّقة والإتقان، زيّنَتها باقة وردٍ أحمر. كان ذاك المنظر كفيلاً للإيحاء بالرُقيّ... وضعتُ حقيبتي وتركت أمامها حقيبة «طوفان»، الذي راح يركض فرحاً بالبيت، لقد أصرّت أمّي طوال الطريق أن تصف له أجمل ما قد يكون هنا بينما كُنت أستمع لهما بنصف عقل ورُبعِ اهتمام، كنتُ أرى أنّها تتمادى في تجميل المجهول عنّا وعنها، لكن ربّما رأت أن الأفضل لـ «طوفان» أن يبني أحلاماً ورديّة على أن

يُصيبه جنون التشاؤم – كما تُلقّبه أمّي – الذي يُصيبني، لكن بالنسبة إليّ كان الأفضل لها لو صارحته بشي عن الحقيقة التي نجهلها كيْ لا تنكسر أحلامه دون سابق إنذار...

نظرت إليّ والِدتي كأنّما تسألني عن رأيي في البيت، ثمّ بدا عليها الاستياء لإدراكها فعلاً أنّ التشاؤم طغى على تفكيري كلّه هنا، وأجبتها بابتسامة مُجرَّدةٍ من الحياةِ مريرةٍ، لنْ أدّعيَ الفرح لكني لن أكسر فرحتها هي أيضاً.

قالت لي:

– سنرى غرفتكِ، متأكدةٌ أنّها ستروقكِ!

ربّما... لولا لعبة الشطرنج التي وجدتُ نفسي مُرغمةً على مواصلتها منذ أوّل يوم دخلت فيه تلك الغرفة.

كانت في آخر الرِواق، خامِس غرفة، كانت جدّ واسعة ولطالما أحسستُ أنّها فارغة، خُصوصاً أنّ أغلبها يجعل الأرضيّة بارزة أكثر، لم تكن بأيّ الألوان البسيطة التي اعتدتُ عليها، حِيطانها كانت مطليّة بأسلوب جميل، منقطّة بألوان عدة، رمادي، ورديّ باهِت وأبيض، وبعض الذرّات اللاّمعة الفضيّة التي تعكس وقت المغرب أشعّة الشمس فتعطي منظراً وهّاجاً رائعاً... لم يطغَ اللون الوردي كثيراً على الألوان، – آآه بالطبع لعدم إفساد رقعة الشطرنج!!!

لِوِسعِ الغرفة كان فيها نافذتان من خشب لامع، تغطيهما ستائر بلون رماديّ فاتح، عن يسار الغرفة سرير مرتّبٌ باحترافية، لم يكن بالحجم ذاته لسريري في إسطنبول لكنّه مقبول كذلك، فقد كنت أخاف الأسرّة الضخمة، لكنّ مجموعة الوسائد التي تُغطّي ثُلث مساحته تجعله جميلاً بلا شك، خصوصاً بألوانها الدافئة المماثلة لألوان الغرفة، بالإضافة لوسادتين مربعتيْ الشكل سوداوين صغيرتين... آآه، الرّقعة

مجدداً...

لم أشأ الإطالة كثيراً وبرغم أنّي كنتُ أتوق للنوم من فرط تعبي وإرهاقي، فضّلتُ الاستدارة لوالدتي التي كانت مبتسمة، لألمح خلفها «طوفان» يحشُر نفسه كيْ يُلقي نظرة على غرفتي ويصرُخ بانبهار الأطفال وبراءتهم. لمحت أمّي فأسرعَت بالسؤال:

– هلْ أعجبتكِ؟

لم تترك لي فرصة الردّ لِتُضيف:

– لقد حاولتُ قدر الإمكان أن أشرح لِـ «عزيز» أمنية طفولتك التي لم نُحققها لكِ.

* * *

أكتُب... أكتُب لكن لَيسَ لأحد، رغمَ نبرة المخاطب التي تردّدت دوماً في كتاباتي... أكتب لأخرج من وِحدتي... لكنّي عزِفت عن الكتابة منذ أسابيع، ربّما أصِبتُ بنوبة الكآبة المعتادة، فذاك الشيء الوحيد الذي يُمكنُه صدِّي عن الكتابة، فالكتابة حياة بالنسبة إليّ.

آخر شيء كتبته تركتُهُ هنا، على مكتبي، على الورقة التي غطّاها الغبار:

«أفكار متضاربة... لا بأس، غداً سأجد نفسي مجدداً».

و لم يحن بعدُ ذلك الغد الذي انتظرته من حينها، أحاول التذكّر بأيّ الشهور نحن، أحمل هاتفي الذي بات مهجوراً منذ قرابة الشهرين، إنّه العشرون من يوليو

(جويلية)، أربعة أيّام عقِب ما تخلّل الدولة من ضجّة، لَم أهتم بالأمر كثيراً، خرجتُ ليلتها ساعة من الزمن في جولة خفيفة وعُدتُ بعدها، لم يكن لديَّ ما أخشى عليه...

أرتدي ثيابي كَعادتي بتثاقل وأنحني ألتقطُ حِذائي وأمضي...

كأنّ شارِع «تُركغوجو» لا يسير بِنظام الكونِ المُتغيّر، لن أبتعد كثيراً اليوم – على حدّ بَرمَجَتي – سأُلقي نظرةً على ميدان «تقسيم» (Taksim) وأعود من فوري، تعوّدتُ ذلك، ففي صِغري كنتُ – حين أُنهي يومي الدراسي في مدرستي التي كانت قريبة من البيت – أسلك الشارِع الموازي لشارعنا الموصِل تماماً إلى «تقسيم».

الطريق وإن ظهر لي في صِغري طويلاً لم أكن أكترث مطلقاً لذلك، كان للمكان قدسيّة عندي، وتعوّدتُ تقديس عاداتي، أذكر جيّداً متى بدأتُ تلك العادة، وقد كنت من قبل أزور المكان لكن لا أكون وحيدة، وأذكر تماماً نوبة الجنون التي انتابت أمّي حينها، وحين لم أعد باكراً إلى البيت. بَعدها تعوّدت هيَ كذلك ولم تعد تكترث للأمر، ما دامت تُدركُ أين سأذهب ومتى أعود.

قطعتُ مسافة السبع مئة متر مشياً كعادتي، بخطواتي الثابتة، متلهّفة للوصول كأنّي مشتاقة أو أنّي متأخرة عن موعد ما قَطَعتُه.

مَا العيبُ إن عشِقتُ مدينتي وسِرتُ فيها كسائحةٍ بين الفينة والأخرى، أحياناً أنتبه إلى أنّ البعض لا يُولون اهتماماً لجمال مدينتهم، لمسقط رأسهم، بينما قد يفوق جمالها أروع المناظر في العالم، ربّما هي القناعة التي ذبلت بذرتها في قلوب البشر.

بالنسبة إليّ، «إسطنبول» مسقط قلبي أنا، ومن بعدِها الطّوفان على حدّ قول زوجة «لويس الرابع عشر».

منذ مراهقتي لم أخن عهدي مع هذا المكان، كنت كلّ مساء أقطع المسافة مشياً على الأقدام، أقف هناك كأنّي ألمحُ لأوّل مرّة المكان. لشدّة عشقي المكان بتُّ

فعلاً أحسّ أنّني أراه كمن لا يعرفه، كأنّي لا أحفظه شبراً بشبرٍ.

توصِلني خُطواتي إلى ميدان «تقسيم» أرى السُيَّاح الذين تبقّوا بعد الاضطراب هنا، لم يبقَ الكثير، فأغلب الدول أعادت رعاياها، أرى أنّ كلّ شيء صغير يعشقون تضخيمه لا غير...

ولأنّي أعشق السير لم أستفد حتى الآن من مجانيّة النقل العام بمناسبة ما جعلناه عيداً للديمقراطية... أفكّر أنّه الأجدر بي أن أغيّر ذات يومٍ كلّ هذه المناظر التي حفظتني، ربّما حينها سيهدأ بالي وتجدُ الراحة سبيلها إليّ...

منذ شهرين كتبتُ على نفسي هذه العادات الروتينيّة التي لا أرى أنّي سأقلِعُ عنها... أتوَجّه غير بعيد عن صخب الميدان، وأمرّ على باعة الزهور، في طريق عودتي سأبتاع باقةً كالعادة، وستظنّ البائعة العجوز أنّ الباقة لِزوجي كالعادة أيضاً، وسأضحك...

أمّا الآن فسأمكث في الحديقة حتى أحسّ أنّ الشمس باتت تُلهب كلّ شيء تقدر عليه.

* * *

كان البيت بناءً قديماً، لكنّه احتفظ بهيْبته. تنقّلتُ بين حُجراته على وقعِ جُمل «طوفان» التي تعبّر عن اندهاشه، وعلمتُ فيما بعد أنّه بيت من عهد استعمار فرنسا للجزائر، إذ كانت النوافذ كلّها ضخمة. تعمّدتُ أن لا أُدلِيَ برأيي، لأنني خشيتُ أنْ أقولَ أيّ جملةٍ تُفسِدُ على أمّي متعتها. لم أنتظر وصول وجبة العشاء التي طُلبت لنا، ومن فرط تعبي ارتميتُ على ذاك السرير الضخم فانتفضت وسائدُه من حولي.

ابتسمتُ ولم أدرك ما جرى إلاّ حين دلفت أمّي الغرفة وفتحت النوافذ راسمةً ابتسامةً على مُحيّاها:

– نِمتِ البارحة ولمْ أشأ إيقاظك... الفطور جاهز يا عزيزتي.

أظنّ أنّها كانت آخر مرّة تناديني فيها بِـ «عزيزتي».

ظللتُ شاردةً أراقب ذرّات الغبار التي تتطاير والتي لا تظهر إلاّ بأشعة الشمس الصباحيّة، لا أدري كم من الوقت فكرتُ في كلّ شيء مرّ عليّ...

– مجنونتي!!! استيقظي، استيقظي... «عزيز» سيأخذنا في جولةٍ بعد الظهر...

لم أرَ «طوفان» بهذا الحماس منذ مدّة طويلة، أتقنت أمّي كَبْتَ أيّ فكرة قد تجول بخاطِره خوفاً من مكان جديدٍ علينا...

ابتسمتُ لكلامه الذي كنتُ تعوّدتُ عليه منذ نعومة أظفاره، أحياناً أشكّ أنّه سينسى اسمي من فرطِ مُناداتِه لي بِـ «مجنونته»، لكني أحياناً أرى أنّه على حق، فأنا لا أجد فعلاً من داعٍ لكلّ هذا التشاؤم الذي غيَّم على سماء تفكيري سِوى داعي الجنون.

نزلت الدرج وأنا أمازح «طوفان» لأجد أمّي جالسة إلى طاولة المطبخ الذي كان صغيراً بالنسبة إلى الحجم الكبير للبيت، تسكُبُ شايَها الساخن، وينطلقُ «طوفان» ليركض حتى يبلغ أقرب كرسيّ لكرسيّها ويسحبه بحماسٍ ويجلس.

– تمهّل يا «طوفان»، دون ركض! (علّقت والدتي).

جلستُ بجوارها أنا كذلك.

– Günaydın annem (صباح الخير أمّي).

وبعفويّةٍ أمطر «طوفان» أمّي بأسئلته:

– متى سيأتي «عزيز» يا أمّي؟

– لا تُنادِه «عزيز» يا ولد!

– آآه نسيت، إذن متى سيأتي «السيّد» «عزيز» يا أمّي (مُتعمّداً السخريّة في قول كلمة «السيّد»).

لم أسمع بعدها ما دار بينهما، فقد شردت – كالعادة – في ذاك الصبيّ الذي يُقابلني... ما زال يتصرّف كطفل صغيرٍ رغم أنّه قد أتمّ اثنتي عشرة سنة، ربّما لأنّ الجميع يعاملونه على أساس صِغره، لكن ألَمْ يحن بعد الوقت ليرمي بعض عاداته الصبيانيّة! إنْ كنتُ سألوم فكالعادة لن ألوم غيرَ أمّي، فهي التي دلّلته كثيراً منذ ميلاده، لكن ما يُحيّرني فعلاً كون عقله، برغم تصرفاته الصِبيانيّة، أنضج ممّا يبدو. قبل سنوات كنتُ قد تعوّدتُ على نضج فِكره السريع لكنّه فجأة وصل إلى درجة صار يعود منها إلى الوراء، ربّما يتصنّع، فذاك وارِدٌ أو أنّه يتعمّد كيْ لا يفقد اهتمام كلتينا.

أذكر جيّداً يوم كنتُ في الرابعة من عمري، وأخبرتني أمّي أن أنتظر معها قدومه، وحين رأيته أوّل مرّة ولم أصدّق أنّه أخي بل ظننتُه لُعبةً لِصِغر حجمه آنذاك، أذكر مكوث والدتي بالمستشفى، وإحساسي بالوحدة رغم مجيء جدّتي لأبي للبقاء معي، فقد كنت لا أبتعد عن أمّي مُطلقاً، وقتها لم أكن قليلة الكلام... لكنّ «طوفان» كبر بسرعة حتى أنّي أتمنى لو تعود بنا الأيام لِما عِشناه سويّة في طفولتنا...

وتسارعت الذكريات على قلبي وارتميتُ بين طيّاتِها... عِندما دخل أوّل مرّة إلى المدرسة ورافقتُه أنا مع أبي، وحين كان يتشاجر مع أترابه على الكرة وأتدخّلُ أنا لأدافع عنه، لطالما أحسست أنّي مسؤولة عنه، كان عكسي تماماً وقتها، لا ينطِق إلاّ قليلاً، حتى أنّه تأخّر في النطق مقارنة بأترابه، بينما كنتُ أنا إذاعة لا تصمت

مطلقاً.

وحين بلغ الثامنة تراءى له أن يُغيّر اسمي ويُناديني «مجنونته»، انزعجتُ في بادئ الأمر، ثمّ نسيتُ كلّ شيء بسبب تسارع الأحداث في ذاك العام... أمّا الآن فأنا على دراية أنني سأشك بأنه قد جنّ إذا ناداني يوماً بغير «مجنونته».

– هااي... مجنونتي!!!

مُندهِشان ينظران إليّ، لقد رحل تفكيري بعيداً ولم أنتبه، لم أقل شيئاً، اكتفيتُ بالنظر إلى كوب الحليب الموضوع أمامي، لمسته لأجد أنّه قد برد تماماً، كم من الوقت أطلتُ التفكير؟!

انتظرت والدتي أن تسأل كعادتها، لكن حين تركت مقعدها تأكدتُ أنّها لن تفعل، ستكتفي برؤيتي أذبل أمام عينيها ولنْ تحرّك ساكناً، في نظرها سأتعوّد وأعود كما كنت...

جهزتُ نفسي بسرعة وتسابقتُ مع «طوفان» إلى الباب حين رنّ الجرس، ليسَ لحماستي بملاقاة «عزيز» ولا لجولته، إنّما فقط لأُسعد أخي.

«عزيز»، كان رجلاً ذا ملامح شبابيّة، لكأنه أتمّ منذ أشهر فقط الثلاثين، مُتكِئاً على سيارته، ينظر إلى أمّي نظرةً ثاقبة جنونيّة، تقدّم نحونا مُصافِحاً يتأكدّ من اسمَيْنا – كأنّه لا يعرفنا –، قفز بسرعة ليفتح باب سيارته لوالدتي، لا أعلم لِمَ لا أرتاح له ولنظراته، أحسّها أخبث من أن أُبرّئها على كلّ حال. ألقى بعض الكلمات على أمّي بلغته العربية، والتي أظنّها كانت غزلاً، يبتسم ابتسامةً حادّة بمزيج الجمال والخبث. لن أنكر أن طلّته كانت جميلة على كلّ حال كذلك أذاب قلب أمّي ببضعة لِقاءات، ولِحظّها أراد أن يتزوّجها بعد الكثير من الكلمات.

لا أعرف القصّة الحقيقيّة خلف معرفته لأمّي، ولا سبب قبولها المجيء إلى

هنا، أغلب الظن أنه إحساسها بالوحدة أو الأزمة التي كنا نعيشها، لكنّي مُتيقّنةٌ أنّ أمّي تُخفي عنّا الحقيقة. هو تاجر في الجزائر، وبحسب خبرتي التي اكتسبتها في تتبّع الحقائق عرفت كثيراً من تفاصيل حياته بعد ذلك. وَرِث عن والديه ثروةً كبيرة ولم يكن من خيرَة المتعلّمين بل كان يُمضي جُلّ وقته هائماً في الطرقات، بعد وفاة والديه أدرك حجم ما هو فيه، واستغلّ ما بقي له في مشروع لاستيراد الألبسة، أدركَ حقّ الإدراك تهافت الجزائريّات على الألبسة التركيّة، فقد كانت آنذاك أولى بوادر غزو ألبستنا السوق الجزائريّة، أدارَ متجره بنفسه لعدّة شهور، ثم صار بين الفينة والأخرى يتنقّل بين شوارع إسطنبول مُغتنِماً سفره لغرض التجارة... في رحلاتِه تلك تعرّف إلى والدتي، لكن أين وكيف، لا أحد يعرف. أمّا البيت الذي أتى بِنا إليه فليس مِلكه، بل مِلك أحدِ أصدِقائه، استأجره ريثما يقتني غيره بعد مراسم الزواج.

ظننتُ طويلاً أنّي أحلم بأنّ أمّي ستتزوّج، فقد كان ذاك الأمر بالنسبةِ لي جمرَةً تكويني، كنتُ دوماً أسألُها عن مصيرنا أنا و«طوفان» فتبتسم، وتبتسم عيناها معها وتقول لي سؤالها المُعتاد بين أسنانها:

– لماذا تُفكّرين كثيراً؟

لكن ليس الذنبُ ذنبي، بل ذنب عقلي، فلو كانت لديّ القُدرة على إيقافه لخلّصتُ نفسي من كلّ كوابيسي التي تتآمَرُ عليّ كلّما جلست أفكّر.

لم أكن لأمنع والدتي عن أيّ شيء ولا أن أعارض أيّ شيء تفعله، كُنت أساعدها في جمع أمتعتنا بقلب منكسرٍ لكنّي أخفيتُ ذلك، غلّفت معها الأثاث بشراشف قديمة تقيها من فضول الغُبار، لم تشأ أمّي أن تبيع بيتنا في إسطنبول ولو فعلت لمتُّ قهراً، ولم تُرِد كذلك أن تُؤجّره، تركته فقط...

* * *

أسيرُ في أزقّة «تقسيم»، أتركُ لقدميَّ القرار بأنْ تحملاني حيثُ تشاءان، بيميني حقيبتي وبيساري باقة الورد التي اشتريتُها كعادتي... لم أسِرْ للبيت كما تعوّدتُ وكما خطّطتُ، هُنا في الشوارِع وبين أطراف الأزقّة، ما زال الجميع يتحدّثون عن الأوضاع السياسيّة... لقد جعلوا الخامسَ عشر من يوليو (جويلية) عيداً للديمقراطية، كأنّها في حياتنا تحتاج عيداً... كان يكفي نداء بسيط لإخراج الجميع، وكنتُ أنا كالعادة مُرهقة، أحدّق إلى السراب، ثم نفضتُ عنّي قِناع الكآبة ونزلت للشارع قليلاً، كأنّي أحسّ أنّي لا أعيش هذه الحياة رغم كلّ شيء، ما الذي فات على قلبي وما الذي سيُمكنه أن يتحمّل أكثر إن أردتُ أنا...

ما يُعجبني من كلّ الأمر أنّي بِتُّ أُتقن التمثيل بعدَ كلّ هذه السنوات وكلّ هذا الكمّ من الخيْبات، فحينَ أخرج من مَعْزَلي الذي صار هو بيتي، لن أقابِل أيًّا كان بغيرِ الابتسامة، كما حين كُنت أشاهد ما عُرِضَ في واجِهة محل «بيني» (Benny)، وانتبهتُ إلى فتاة صغيرة تنظر إليّ نظرة البراءة – التي غدت مُقتصِرةً على الأطفال – فابتسمتُ، لتردّ عليّ بابتسامة جعلتني أشعر كأنّي لم أرَ مِثلها من قبل.

لم أنتبه إلاّ وقد ركبت قطار الطريق، ذاك الأحمر الذي يعبر وسط «تقسيم» كلّها بسرعة سلحفاة لينتهي بك إلى محطّة «الميترو» الذي يعبر البوسفور حتى وسط إسطنبول.

حيث أنا، لا أدري... فقط أسير، أعرف طريق العودة وذاك كلّ ما يهمّني... كيف لا وأنا سيّدة المكان، فكيفَ وهذه حيثُ عرِفتُ لخُطواتي نغمات، وعرِفتُ للموسيقى بعض النوتات...

كم أعشق الموسيقى، كأغلب الأتراك! وكم اهتممت بها في صغري! كنتُ

أُمضي ساعات أحاول تركيب أيّ لحنٍ أو خلق أيّ إيقاع على مفاتيح البيانو الخاص بوالدي، استهواني الأمر كثيراً خصوصاً أنّ والدي لم يبخل عليّ بشيء... أذكر أنّه كان يعزِم أن يُسجلني في مدرسة الفنون، لكنّه لم يفعل حتى اليوم...

والدي، رحِمه الله، توفي قبل عشرِ سنوات، لم يكن مريضاً، ولم تختطفه المنيّة عقِبَ حادثٍ مفاجئ، بل هكذا فقط، شاء الله أن يأخذه فأخذه...

كنتُ قد احتفلت بعيد ميلادي الثاني عشر – وهو آخر عيد أحتفل به – قبل يومين، والذي أهداني فيه قلادةً ذهبيّة بِـ «مفتاح صول»، لم أنزعها من يومها... وكعادتي في أيّام عطلة أبي أذهب أنا لإيقاظه صباحاً لأنّه لا يستيقظ باكراً، كانت أمّي وقتها ترتّب البيت، ما إن فتحت عينايَ حتى ذهبت إليها:

– صباح الخير.

– صباح النّور عزيزتي، ما بِكِ تبدين كما لو أنّكِ لم تنامي جيّداً.

– نعم، رأيتُ كابوساً مزعجاً، استفقتُ عليه...

– لا بأس عزيزتي.

أخذتني في حضنها، وكأنّها كانت آخرَ مرّة حضنتها وأنا أنا، بحدّ ذاتي...

– هَلاّ أيقظتِ أباكِ؟

– بالتأكيد... «طوفان» لا يزال نائماً أيضاً؟

– لا «طوفان» استيقظ باكِراً اليوم، إنّه في المطبخ، تركته يتناول فطوره، تعرفين أنّه لا يصبِر على جوعه.

ضحِكتُ وضحِكت هي... دلفتُ غرفة والدي حينها.

– أبي...

– ...

– أبي... هيّا استيقظ، وعدتني اليومَ بتسجيلي في مدرسة الفنون...

– ...

– أبي...

تعوّدتُ أن يستيقظَ من فورِه، لكن ذاك اليوم لم يستيقظ أبي، ولا في أيّ يومٍ بعد ذلك...

– أبي... babam... أبي، أرجوك استيقظ!

وارتفع صوتي وامتزجت نبرته ببكاء حاد. لا أدري كيف أدركتُ أنّه لن يُجيبني، ركَضت أمّي إلى الغرفة، حتى هي صارت تُناديه، لكنّ صدى فقدنا يعلو من يومها دون جواب... «طوفان» الذي كان بعمر الثامنة كان ينظر إليّ في حيرة حين كنتُ أضمّه وأبكي بشدّة.

يومها فقط أدركتُ معنى الفقد وحينها فقط انقلبت كلّ حياتي...

لا أذكر كيف مضت جنازة أبي ولا الأيام التي تَلَتها، كأنّها أشباحُ ذكريات، صورٌ تعمّدتُ مسحها من سجّلات ذكرياتي إلى الأبد... لكنّي مع ذلك أعلم أنّ «طوفان» نسيها كلّها، أو تعمّد ذلك، فمن يومها تغيّر سلوكه. وقتها كان بالنسبة إليّ مشروع نابغة، إلاّ أنّه من حينها صار يعود إلى الوراء بتصرّفاته، كأنّما يُحمّل الدنيا خطيئة فقد والدي، أذكر أنّه أصبح كثيرَ الشرُود، ثم حين فارقته عادة الشرود تلك كانت قد انتقلت إليّ، كمرضٍ اِستحال تطبيبه، فصِرتُ من يومها غارقةً في اللاّوجود، حينها صار «طوفان» يَنعَتُني بالمجنونة. أدرك الآن حجم الجنون الذي أنا

فيه، ولا أكذب إن قلتُ أنّه لن يحسّ أحدٌ بالفقد مثلي، أتحدّى أيّ شخصٍ يُنكر أنّي قد أدركت معنى الفقد من كل الزوايا، تعلّمت بعدها معنى الانهزام، معنى الظلم، معنى الوحدة، الكآبة، ومعنى الانهيار...

لقد صار هذا القلب بالياً الآن، فلم يبقَ لديّ شيء قابل للإصلاح ولم تعد فيه أيّ غرفة قابلة لإعادة التعمير.

عُدتُ إلى البيت بعد أن أسدَلت الشمس رحمتها وانخفض لهيبها، بعد أن تكدّست بضع ترسّبات من دموعي على حواف عينيّ اللتين لم تعرفا يوماً غير دموع القهر. صعدتُ درج البناية، وبِصَمتِي فتحت باب البيت، وعبرت إلى الداخل، أغلقته وارتميتُ أرضاً أسند ظهري إلى الباب، ألقيتُ باقة الأزهار، وبكيت...

* * *

كان يجول في تلك الأزقّة زقاقاً زُقاقاً بسيّارته، يكلّم والدتي، يصفُ لها عراقة كل شيء هنا، علِمتُ بعدها أنّ «قسنطينة» مدينة قديمة فعلاً، لم يستهوني حديثه فلم أكنْ أفهمه بالدّقة، وأكتفي بما تُترجِمه أمّي، أو بعضِ الجمل التي يقولها باللغة الفرنسية أو الإنجليزية. حتى أمّي كانت محدودة المعرفة باللغة العربية وقتها، كنتُ أنظر من خلال النافذة، أراقبُ الشوارع والنّاس، وأتخيّلُ ما أشاؤه أنا لا ما يقوله هوَ... لا أكذب، أكرهه...

لم أنتبه إلاّ حين لمحتُ ذاك النّصب خلف أشجار الصنوبر، كان يُشبه باب بعلبك لكنّه أصغر، أوقفَ السيّارة فترجّلنا عنها:

– أمّا هذا، فهو «نصب الأموات».

ردّت أمّي متسائلة بدهشة:

– الأموات؟! ما هذه التسميّة!!!

ضحك «عزيز»، لكنّه لأوّل مرّة يصمت منذ بداية الجولة.

تخطّيْنا النّصب لنقف في شِبه ساحة صغيرة تتوسّطها شبه طاولة مستديرة، سألتُ:

– تلكَ طاولة؟

– لا ليست كذلك، اقتربي أكثر وستعلمين ما هي.

اقتربتُ، لكنّي انتبهتُ للمنظر الذّي رأيته أمامَ عينيّ فنسيت أمرها، رأيتُ من قبل الكثير من الجسور، رأيتُ أروع المُدن وأجملها – لا الجسور ولا الجمال غريبان عن مسقط قلبي – لكنّي للصّدق أُعجِبتُ بما لمحتُه حينها، رغم كلّ ما عرفته وما رأيته من جسورٍ كانت هذه مختلفة، ورغم كلّ المدن فهذه المدينة بِرُمّتها بُنِيَت على صخرتين! وكنتُ حيثُ أنا أقف في أعلى نقطة تسمح برؤية جلّ المدينة.

قال «طوفان» باندهاش:

– ما أجملها!

فهمسَ «عزيز» ضاحكاً:

– أعجبكم المنظر فنسيْتم ما سألتموني عنه؟

تلك التي خِلتُها طاولة لم تكن إلاّ خريطة مفصّلة للمدينة بأكملها مرسومةً على صفيحةِ رخام بدقّة، فوق النّصب تمثال النّصر، ولم يكن غيرَ طائرٍ خرافيّ يتأهّب للتحليق، كنتُ أنظر إليه متمعّنةً حين سألني «عزيز»:

– هل تُريدين الصّعود إلى هناك؟

استغربتُ سؤاله لكنّه استأذن لدقيقة وذهب مسرعاً، فصارت أمّي تحدّثني:

– هل أعجبتكِ الجولة؟

– لا بأس بها (مشيرةً إلى أنّها لم تكن لتُرضيني).

وأشحتُ بناظري عمّا أُبصره حولي.

– لكن لم يبدُ أنّه لا بأسَ بها! حتّى أنّكِ لم تقولي شيئاً طوال الطريق...

– ماذا أقول وأنا نصف الكلام لا أفهمه؟

لم تُجبني، فدَنوتُ أكثر من حدود الساحة التي كانت أشبه بشرفة، وضعتُ يديّ على الدرابزين الحديدي بينما كان عزيز يعود قائلاً:

– هيّا بنا.

صعِدنا درجاً قديماً غير نظيفٍ البتّة، فأدركتُ حينها أنّ «عزيز» تأكدّ من عدم وجود أيٍّ من قُطّاع الطرق هناك. بعد زيارتنا تلك بشهور أُعيدت إلى المكان قيمته وتم تنظيفه وتهيئته وإعادة إحيائه ضِمنَ المعالم القسنطينيّة التي لا غُبار عليها.

وصلنا القمّة، حيث أحسستُ أنّ قلبي انتفض، قال «عزيز»:

– أنتم الآن ترَونَ كلّ المدينة فِعلِيًّا.

استدرتُ لأرى معلماً بمستوى ارتفاع المكان نفسه وما كِدتُ أنطق حتى صرخ «طوفان»:

– وما ذلك هناك؟

– إنّه تمثال السيّدة مريم، ويُسمّى تمثال سيّدة السلام.

تعجّبتُ لأني أدرك أن في بلادٍ كالجزائر نادراً ما ترى شيئا يوحي بغير الإسلام ولم استطع كبحَ تعجّبي:

– أليست الجزائر بلداً مسلماً؟

– بلى، إنّما قد شُيِّد وقت الاستعمار، مثله مثل الذّي نحن فيه الآن والذي شُيِّد تكريماً...

أوقفه «طوفان»:

– هل سنذهب إلى هناك أيضاً؟

– لا... وصمت بعدها.

علِمتُ بعدها أنّها منطقة عسكريّة وأدركتُ أنّ بعض النّاس حتى لا يُدركون وجوده أصلاً، كما علمتُ أنّ قسنطينة تغيّرت كثيراً فلم تعد أبداً ذاتها التي أراها اليومَ وأنا أسمع أخبار بركان «إيسلاندا» في أبريل العاشر بعد الألفين.

عُدنا إلى البيت وقد تغيّرت نظرتي كثيراً عنها، بعد أن كنت أراها منفى، بتّ أراها مدينةً تستحق أن أُعطيها فرصة أخرى. وحدهم البشر لا يستحقون فرصاً جديدة، فلو امتلكوها لضيّعوها تماماً، أمّا الأماكن فتستحقّ حتماً. يومها قررت أن أتعلّم اللغة العربية – فقد استفزني «عزيز» وهو يتكلّم بالعربية كي لا نفهمه أنا وأخي – لكنّي تركتُ رغبتي في صدري، حتّى أجد وقتاً مناسباً لها...

لم يُسجّلنا «عزيز» في أيّ مدرسة، رغم قُرب المدارس من البيت، فبالنسبة لِـ «طوفان» كان يكفيه أن يعبُرَ طريقاً واحداً ليصل إلى المدرسة الابتدائيّة. حاولتُ قدر الإمكان التأقلم مع الوضع المفروض عليّ بالبقاء في البيت...

بعدَ أربع صباحيّات من وصولنا، وبعد الخروج مرتين في جولات مع «عزيز»،

دخلتُ غرفة أمّي، التي كانت غرفة شرقيّة كذلك، طغت عليها ألوان لوحة غروب الشمس. جلست على حافة السرير، بينما كانت تمشّط شعرها الطويل الكستنائيّ.

– annem (أمّي)، لماذا لم نُسجّل بعدُ في أيّ مدرسة؟

استدارت نِصف استدارة، وردّت:

– يا لسذاجتكِ! كيف لكِ أن تلتحقي بالمدرسة وأنتِ لا تعرفين غير القليل من الفرنسية وأقلّ منها اللغة العربية؟

(وكان الفضل لوالدي الذي غرس فيّ حبّ الثقافات والتعلّم).

– ألَا يفهمون الإنجليزي؟

– بلى، على حدّ إدراكي، لكن سيكون صعباً عليكما خصوصاً «طوفان» فلا تنسيْ أنّه لا يعرف الفرنسيّة البتّة، زِد على ذلك، أخبرني «عزيز» أنّ الأساتذة في إضراب مفتوح... لا أدري يا بُنيّتي، على كلّ حال لا تخشيْ شيئاً، في العام المقبل سنسجلكما أنتما الاثنين.

خَدّرَنا الصّمت لدقائق ثمّ قالت لي:

– أَلاَ تريدين رؤية فستان زفافي؟

أجبتُها بالحيرة التي غطّت وجهي، فأضافت:

– آآه، ليْس ثوباً مزخرفاً وليس بالشيء الكثير بتاتاً، مجرّد ثوبٍ يليق بعمري وحالي فقط.

وانتفضت من مكانها وأخرجت من الخزانة حمّالة ملابس مغلقة، فتحتها وأخرجت فستاناً ذا لونٍ سلمونيّ باهت، راقياً جداً، وضعته أمامي فوق السرير، وأسرعت تبحث عن إكسسواراتها، زوْج أقراطٍ وقلادة بشكل وردة من الذهب والماس

من علامة Luis Witton وسِوار أذكره جيّداً، فقد كان هديّة أبي لها في عيد ميلادها الأخير قبل وفاته. لم أنتبه إلاّ وأنا أمسك قِلادتي... كثيراً ما نحصر أغلى ما نملك في فقاعة هديّة، فذلك كلّ ما يكون قد تبقّى لنا منهم للذكرى، ابتسمتُ خشيَة أن ترى دُموعي:

– هنيئاً لكِ annem (أمّي).

لم أَعِ كيفَ تملّصتُ منها حينها وغدوتُ إلى غرفتي، كنت أنظر من نافذتي، أرقُب بعض المّارة... «سيدي مبروك» ليس بالمكان المكتظ أبداً، بعض الدُّور المتراصّة تتخلّلُها الطرق والشوارع. ألمحُ أحياناً بعض الأطفال يركضون عند الثالثة زوالاً، خارجين من مدرسة «المقراني» راكِضين نحو بيوتهم.

استمرّ الوضع يومين آخرين حتى بلغنا يوم الاثنين، ارتدت أمّي ملابسها وخرجت بحدود العاشرة صباحاً مع «عزيز». ظللتُ و«طوفان» في البيت ننتظر قُدوم أخت «عزيز» التي قال إنّ اسمها «شهرزاد» والتي ستأخذنا إلى الصالة الصغيرة التي جُهِزت للحفل.

رنّ الجرس، وكنتُ على الأريكة القريبة من باب غرفة الاستقبال أراقب «طوفان» وهو يلعب على جهاز الكمبيوتر، قمت لفتح الباب. كانت امرأة سأصفها أنّها كالغجر في جمالها، شعرها أسود يتدلّى على كتفيها، تمسِكُ بعض أطرافه للوراء بحلقات فضيّة، لم أصدّق أنّها بعمر الثلاثين، فقد خِلتُها أتمت ربيعها الرابع والعشرين للتوّ، بيدها أساور كثيرة فِضيّة، يتوسّطها إسوار عريضٌ مزخرف بالألوان، كذلك قرطاها بالرسوم والألوان ذاتها، كانت ترتدي لِباساً جميلاً، علِمتُ فيما بعد أنّه زيٌّ قبائليّ عصريّ. ابتسمَت لي بعدَ أن أطلتُ التحديق إليها.

– مؤكدٌ أنّك ابنة «فيروز».

أوْمأتُ رأسي أنْ نعم، فواصلت:

– أنا «شهرزاد» أخت «عزيز»، لا بدّ أنّكِ عرفتِ... هلْ جهّزتِ نفسكِ؟

– نعم.

رأيتُ في وجهها حيرةً ثمّ قالت بنبرةٍ لطيفة وخافتة:

– وهل يمكن لابنة العروس أن تذهب إلى عرس والدتها بهذه البساطة المُتمادى فيها؟

كُنتُ أرتدي فستاناً أسود قصيراً بسيطاً، وجمعتُ شعري بضفيرة إلى الوراء، ولم أزيّن وجهي بأيّ شيء. لم أُجِبها مُتعمّدةً كي تتجاوز الأمر وتصمُت، لكنّها استأذنتني لِدقيقة، أطَلّت فيها من باب الحديقة على السيّارة البيضاء المركونة هناك موَجِّهةً بِضعَ كلمات باللهجة الجزائريّة ثمّ عادت مسرعة، أمسكت يدي ودخلت البيت، حينها فقط أدركتُ أنّ خُطّتي لم تنجح.

سألتني:

– أينَ غُرفتكِ؟

ولمْ تتوقف عن المشي. دخلنا غُرفتي فانبهرت بكلّ ما كُنتُ أملك... كانت أحياناً هدايا «عزيز» قوارير عطر فاخر كنت أحتار لِمَ لا يدّخر ثمنها لنفسِه، وبعض مواد التجميل التي كنتُ أحتار من أمّي لمَاذا تعكِفُ دوماً على اقتِنائها لي، ولِمَ جلبت بعضها من «إسطنبول» حتى «قسنطينة».

أجلستني على حافة السرير وعقدت يديْها وصارت تُفكّر وتنظر نحوي، ثم قالت:

– أنا لم أكن أدرك أنكِ تملكين كلّ هذا الذي أراه ولم تستعملي أيّ شيء في

عرس والدتك!

ثمّ أخذت تعبث بأغراضي وأنا ألاحِظها فقط، تُجرّبُ هذا وتضع ذاك جانباً، ثمّ صارت تُجمّلني أنا، تُتمتِمُ في حركتها بكلام لا أفهمه لكنّي كنتُ مُستسلِمةً لها، ثمّ فجأةً توقفت ونظرت إليّ كأنّها المرة الأولى التي تُلاحِظ ما كانت تصنع بيديها وانبهرت. أخذت يدي وسحبتني إلى المِرآة التي كانت بجانب خزانتي، هناك حيثُ لم أعرف نفسي، تغيّر شكلُ عينيّ ببعض الكحل الذي رسمَته، وتوَرّدت وجنتاي. لم تُفرِط بشيء، وذاك ما أعجبني... حينها فقط راقت لي «شهرزاد»، حيثُ أنّها فهِمتني دون عناء منّي. ابتسمَت لِردّةِ فِعلي ثمّ سألتني كأنّها تستعجِل:

– أليسَ لديكِ إكسِسوارات؟

لم أمتنع حينها عن فتح دُرجي واستخراج علبة مجوهراتي ووضعها تحت تصرّفها، أحسستُ بعد ما حدث أنّها تستحقّ أنْ أثِق بها. لم أكن أُفكّر في استعمال أيّ مجوهرات، كانت تكفيني قلادتي التي أهداني إيّاها أبي، اختارت لي مجوهرات بسيطة فضيّة، ثمّ انتبهت إلى مفتاح «صول» الذهبيّ المعلّق بعنقي.

– أظنّ أنّه يستوجِبُ علينا نزعُ هذا!

امتنعتُ وأنا أشير برأسي أنْ لا... صمتت قليلاً ثمّ أردفت:

– إن كانَ عزيزاً عليكِ فاتركيه، وسنغيّر ما اخترنا...

نظرت إليّ نظرة شفقةٍ جعلتني لِوهلةٍ أغيّر رأيي فيها، ثم قالت:

– لا تنزعيه، أصلاً هو أجمل ممّا اخترنا...

فتحت حقيبتها وأخذت منها مِسحلاً ذهبياً وألبستني إيّاه قائلةً:

– أعلم أنّه ليس سهلاً عليكِ زواجُ أمّك بعد وفاة أبيكِ، خصوصاً بعيداً عن

بلدكم...

كانت تتحدّثُ وتربِتُ على كتفي، ما أعرتُها اهتماماً وكان عزائي حين ظهر «طوفان» فجأة لينبهر ويصرخ:

– مجنونتي... مستحيلٌ أنّكِ أنتِ!!!

قاطَعت حماسهُ «شهرزاد» متسائلة:

– أليْسَت جميلة؟... بالمُناسبة «طوفان» أنا «شهرزاد»... سنتعرّف فيما بعد، هيّا لِنُسرِع فقد أطلنا كثيراً...

ركِبنا سيارتها، حيث كان بانتظارنا زوجها «محمد»، لقد كانا جِدّ لَطيفيْن معنا، حتى أنّي لم أحسّ بتاتاً بالفرق بين أعمارِنا، وكنت لأوّل مرّة على سجيّتي في بِلادٍ ليست بِلادي، ومع أُناسٍ عرفتُهم للتّو.

وصلنا الصّالة التي كانت بسيطة للغاية كبساطة الحفل، لم يكن هناك جمعٌ غفير، فإمّا كانوا أصدِقاء «عزيز» أو بعض أفراد عائلته البعيدة.

جلستُ مع «شهرزاد» التي صارت تحكي لنا عن نفسِها، ما أعجبني أنّها تبذُل مجهوداً كي لا تُشعِرني بغرابتي عنهم، تُترجم لي كلّ ما أسمعه، كي لا ينتابني أي إحساس بالوحدة، ربّما لكونها تعرف ذاك الشعور الممقوت بالمكوث مع أغراب يتحدّثون لغة لا تفقهها.

زوجُها قبائليّ، ويسكُنان بعيداً جداً عن هنا، وقد واجهت صعوبات فعلاً في التأقلم هُناك، خصوصاً بعد كلّ الوقائع التي مرّت عليها وعلى زوجِها. وعدتني أنّها ستُخبرني بتفاصيل أكثر عن مغامرتها بين القبائل، وكيف عَقِب خمس سنوات اكتفت بالحياة هناك بين ضلوعِ جبال «جرجرة»، وما عادت تحضر إلى «قسنطينة» إلاّ لفرحٍ أو مأتم... بانتهاء الحفل الذي كان مجرّد عشاء – تذوّقتُ فيه «الجَارِي»

القسنطيني، و«المْشَلْوَشْ» الذي احترتُ لطعمه الغريب عنّي – وأمسيةٍ بسيطةٍ، علِمتُ أنّ والِدتي ستذهبُ في رحلة إلى مدينة مجاورة لعدّة أيّام، وذاك ما كُنتُ أجهلُه من قبل. خرجت غاضبة لأنّها لم تُحِطني عِلماً، لكنّها تحجّجت بانشِغالِها، وركبتُ سيّارة «شهرزاد» التي لحِقت بي حينها تُريد التحدّث معي. عن قصدٍ كنتُ أجيبُها بلُغتي التركيّة، فكانت تبتدئ الجملة ثم تصمت. لم يكن في قلبي متسعٌ آخر للغضب أو الحزن، مللتُ كلّ ما مررتُ به حتى الآن، حتى أنّي مللتُ نفسي، مللت فكرة أن الجميعُ صاروا يُقرِّرون عنّي ويعلمون أمري قبل أن أعلم، حتى الغُرباء، وأمّي لا تكترث...

تركَتني «شهرزاد» وحيدةً فصرتُ أبكي بحرقة، أبكي بِلَوعة كلّ حزنٍ في حياتي، أبكي حالي لأني تركت بلدي، لأعيشَ بين الأغراب، أبكي أمّي التي لم تأبه لِحالي وحال أخي، وفضّلت الزواج بمن لا تعرِف عنه غيرَ أوهامٍ خطّها حروفاً أكادُ أجزم ادِّعاءَهُ لكلّ حرفٍ هو يقوله. ومهما كان صادِقاً، فأنا لا أحبّه ولا أطيقه، حتى أنّ فِكرة زواجه بأمّي تكادُ تخنُقني. أحسّ أنّي في بئرٍ عميقة، لا هواء فيها، مُعلّقة بحبلٍ ينسدِلُ من الأعلى يُطَوِّقُ رقبتي حتى أكاد أن أموت خنقاً... تعِبتُ... تعبتُ من كلّ شيء وأتوقُ إلى نِسيان كلّ شيء والعودة، أتوقُ لأيّامٍ مضت، ولو كنتُ فيها أُعاني مرض الحزن من الفقد إلاّ أنّي كنتُ فيها على راحتي، فلا أُحدّثُ أشخاصاً بِلُغةٍ غير لغتي، كي يفهموا مقصدي، ولا أُحاولُ جاهِدةً الاستسلام للقدر...

ركِبت «شهرزاد» وزوجها و«طوفان» السيّارة، لا أذكر كم كانت الساعة وقتها لكنّي مُتأكِدّة أنّي لمحتُ الشّفق قد زال عن الأفق... دخلتُ البيت أنا و«طوفان» وهنا لمْ أكن أعرف كذلك أنّ «شهرزاد» ستَمكُثُ معنا، حتى وإن كانت لطيفةً وأحببتُها، لا أُحبّ أن أُتركَ خلف الصّورة حتى أتفاجأ بحدوثِها.

ركضتُ إلى غُرفتي، وأغلقتُ الباب، ولم أفِق إلاّ حين تسلّلت أشِعّة الشمس من

النافذة، وجدتُ «شهرزاد» قد حضّرت الفطور، و«طوفان» هناك في المطبخ يشرب عصيره.

– «طوفان» حبيبي günaydın (صباح الخير). مُجاهدةً نفسي على الابتسام.

– صباح الخير مجنونتي...

فهِمَ من عينيّ سُؤالي، فتابع الكلام:

– ليسَت هُنا، خرجت وقالت إنّها لن تعود حتّى المساء.

– أحسن...

– لكني أحسستُ البارحة أنّها قد أعجبتكِ!

– بلى، ولكنْ هناك أمورٌ يا عزيزي لا بدّ أن تفهمها (سحبتُ الكرسيّ وجلستُ وأنا أُكمِل) أنا لا أحبُ أن أُوضعَ في موقف وأُصدم بالواقع، خصوصاً إذا كان الأمرُ قراراً مدروساً من قبل، ولم نتعوّد قبل هذا حدوث كمِثل هذه الأمور بيننا في العائلة. جعلوني أحس أنّي لعبةٌ بين أيديهم كما يُديرونها تتمايل!

– لُعبة شِطرنج؟ (قال ممازحاً).

– ربّما...

كانت أوّل حركة من «عزيز» في هذه اللعبة، وسيحين دوري. لعبةٌ جنودها الأحزان، وقلبها عيدان ريحان، فُرسانُها العَبَرات، وقِلاعُها غَدَت في سُبات... بيْدَ أنّ العدوّ لها بالمرصاد، جيوش من الكلمات، وفرسان بِسكاكينَ شامِخات...

اكتملت الرُّقعة...

* * *

جُزيْئات الطاقة تُستَنزَفُ من دمائي، تلعَنُ ماضيَّ وتتسلَّطُ على حاضري، تِلك آلامُ جُثمان النسيان فلْنُحيِها، وتِلك مواقِعُ جراح قديمة فلْنَرمِها غُبار الحياة تولدْ من جديد، من رحِمٍ اندملت جِراحها أو لم تندمِل، المهم أن أعيشَ أنا مخاض هذه الجراح مجدداً، تحترقُ أوصالي مرّة أخرى، ويُنَكَّلُ بجُثّتي مرّةً أخرى دون كلل...

«أحياناً لا يكفينا أنْ نُغلِقَ باباً أو نوصِدَ نوافِذَ كانت منها لنا نسائم حلمٍ دافئ، آمالٌ قصيرة المدى خُيِّلَ لنا أنّها ستُخَلّد، أحياناً الأجدر بنا أنْ نموت، لنحيا مُجدداً، ليسَ بالطموح نفسه، ولا بالأحلام ذاتها، ولا حتى الأوهام، يكفينا فقط الاسم ذاته، فسيُذكّرنا في كلّ مرّة نسمعه بنبرةٍ أحببناه فيها».

ربّما كان التمادي في الأحلام سذاجة، وتوقُّع تغيّر الحال للأحسن حماقة، بل طفولة تأخّرت عنها براءتُها، أيًّا كانت، فهيَ تنكيلٌ بالمشاعِر ليس إلاّ...

لا أدري كم من الوقت مضى وأنا في بحرِ أفكاري عائمة، ربّما لم أتعلّم السباحة بقدرِ ما أتقنتُ الغرق.. أحسستُ بأوصالي تجَمّدت، وما عادت لديّ قدرة للوقوف، ولا أريد رؤية وجهي في المرآة فلن أعرفه، فأظنّ أنّي ذات مرّة أعرتُه لعَجوزٍ خمسينيّة ونسيتُ استِرداده. تنهدتُ لأخرج كلّ الملل الذي سكنِني، وباختناق، لم يخرج لا هواء ولا ملل ولا حتى روحي... ألن يزورني الموت للحظة!؟ فربّما ذاك ما سينفعني، فلن أتخطّى عذاب قلبي هذا إلاَّ بالمنيّة، فأينَ هي، أين هي حين نحتاجها؟ هي لا تزورُنا إلاّ بغتة لتسرِقَ منّا من نحب، ولا تزورنا لرغبتنا فيها ولا لاحتياجنا لها، كم هي أنانيّة... سألتُ نفسي:

– تُراني سأدفن ذات يومٍ نفسي خلف كلّ هذا الحطام وأندثِرُ تحتَ كلّ انكِساراتي؟ عُدتُ إلى هُنا كي أنسى آلامي، عُدتُ أجمعُ فُتات أشلائي، لكنّي لا أميّزُ الأجزاء التي تحطّمت منّي، أَهِيَ كُلّي أم هي جوارِحي فقط، أم قلبٌ كان ينبِض لكنّه دخل غيبوبةً، ولا أذكر هل دفنته أنا أمْ دفنهُ غيري أثناء انشغالي بِلَملَمةِ حُطامي...

وقفتُ كَمُخَدَّر، تثاقلت حتى ولجتُ غرفتي، رميتُ باقة الأزهار التي أخذتها من على الأرض فوق مكتبي، فأسقطتُ بعض أوراقي التي كانت على الحافّة، رُحتُ أجمعُها، وغَدوتُ أقرأ...

«لا بُدّ لنا أن نعيش، أن نقتُل روحَ المنيّة في قلبِنا، أو نُحيِي حُطامنا لتجتمع كما يَحلو لها، لا بُدّ لها أن تجتمع، فما عاد يهمّ موضِعها، ولا حالة الدّمار التي طالتها، إن كانت ستعود فلا يهمّ غير عودتِها...».

أعدتُ الورقة وقد أُزيحَ رذاذ ذاك الجوّ الذي كان يحوم حولي، وانتفضت على هاتفي يرنّ، منذ قرابة الشهرين لم أسمع له صوتاً ولا صدى!

كان رقماً من الجزائر، لِوهلةٍ جال بخاطري كل شيء سيئ، ثمّ أجبت...

– ألو!

– مجنونتي كيف حالك... طائرتي الآن ستُقلِع، انتظريني في مطار «أتاتورك»!

كان يُسرع في كلماته، حتى أنّي لم أصدّق ما كُنتُ أسمع، ولولا «مجنونتي» لما أدركتُ المُتصّل.

أعلمُ أنّ الرحلة من العاصمة الجزائر إلى «إسطنبول» تستغرق ثلاث ساعات وربع، لكن قد يكون باشرَ رحلته من مطار «محمد بوضياف» ب. «قسنطينة»، أو مطار «عنابة»، على العموم، لديّ ثلاث ساعات من الآن كأدنى تقدير. لم أشأ

التفكير في سبب قدومه، فمنذ عامين وأنا هُنا ولم يحصُل أن زارني. كانت الساعة حينها الخامسة مساءً. لديَّ متسعٌ آخر من الوقت لأُمضيه في وحدتي، فجأةً أحسستُ بجوعٍ شديدٍ وانتبهتُ إلى أنّه من الأحسن لي أن أحضِّر أيّ شيء لِـ «طوفان»، لكنّي فجأة عجزت تذكُّر الأطباق التي كان يُحبّها، لا أذكر أَكَانت «المانتي» أم «البوريك»... لقد مضى وقتٌ طويل وبتُّ أنسى بعض التفاصيل، لكنّي قررت أخيراً أن أعزِمهُ إلى أحد المطاعم وهناك سيختارُ هو ما يشاء.

كانت فرصةً لترتيب البيت، فقد صرت لا أنتبه لحاله منذ بداية العطلة، أكوامُ الأوراق هنا وهناك... لم أنتبه بعد أن اندمجتُ في الترتيب إلاّ والساعة تشير للسابعة، أسرعتُ الخروج، فقد يستوجب عليّ الإطالة في أحد الطرقات التي تعرف ازدحاماً بين الفينة والأخرى، لم أنتبه للطريق فعلاً، كلّ ما أذكره أنّي كُنت شاردةً – كالعادة –، إلى أن وصلنا، توقفت سيّارة الأجرة، ترَجَّلتُ بعد أن طلبت من السائق الانتظار، دلفتُ باب المطار الواسع، قاعة الانتظار، وكلّ لحظة أتلصّصُ على الساعة أراقبُ الزمن، هل اشتقتُ لِـ «طوفان»؟ كيف لا أشتاق...

بدأت الوُفود بالدخول، كنتُ أبحث بين طيّ اللحظات، أبحث بين الوجوه كمن يبحث عن ذاته، يخالجنِي شعورٌ بالذنب لا أدرك فحواه ولا المُبرِّر منه...

أسمع نبض قلبي بدَلَ كلّ تلك الجلبة من حولي، حتى الأنغام التي كانت تُعزَف داخل المطار، لا أذكر لِمَ لا أسمعها...

* * *

في الصباح ذاته، والجلسة مع «طوفان» ذاتها، قررتُ بعد صمتٍ طويل:

– «طوفان» فلنتعلّم اللّغة العربيّة!

قُلتُها بِكلّ حماس، رفع عينيهِ بدهشةٍ كأنّه يريد التأكدّ أنّ ذلك فعلاً ما كنت أقصِده من قولي، ابتسمتُ ورُحتُ أجول بخاطري مُتيَقّنةً من نجاحي، وكانت فعلاً أوّل خطوةٍ أخطوها هنا وحيدةً بمحض إرادتي وتصميمي، أعرف نفسي جيّداً، ولن أخيب.

– لا تندهِش «طوفان» لا بدّ من ذلك.

ثمّ أكملتُ بنبرةِ تحدٍّ تعمّدتُها:

– وإلاّ فلن تقبلك أيّ مدرسة!

– ألن أستطيع التعلّم هناك في المدرسة؟

– مُستحيل!

– أَوَلَيسَت مكان التعلّم؟

– بلى، لكن ألم تنتبه إلى أنّهم لا يتحدّثون باللغة أبداً؟ ألم تلاحظ لهجة «عزيز»؟

ظلّ ينظر إليّ مُحدّقاً...

– bak! (انظر)، سأشرح لك: هم عرب، لكن رغم ذلك لهجتهم العربيّة التي يتحدّثون بها طغت عليها بعض الكلمات الأجنبيّة كالفرنسية، وبعض الكلمات التي هي بالأساس لهجتهم الأصليّة.

– حسناً، علّميني معكِ!

هناك ابتسمتُ ابتسامة النّصر الماكرة، أسرعتُ بارتداء ثيابي، وطلبتُ منه أن

يُجهّز نفسه، فوقتها لم يكن البيت قد حصلَ بعدُ على نصيبه من أسلاك الاتصال رغم تأكيد «عزيز» أنّه قد طلب ذلك منذ شهر. لم يكن من شيء يدفعني غير الإرادة في الانتقام، ولم أجد كيف أردّ الصّاع أنّي لم أُحَط عِلماً بقراراتهم حتى حدوثها.

قلّبتُ في حاجيات أمّي وأخذت بعض النقود، على كلّ حال لن تحتاجها بعد الآن، أغلقتُ باب البيت، وخرجنا باحثين عن مقهى للإنترنت، لا أدري لماذا خطر ببالي أنّي لن أجد أفضل منه للتعلّم، وكذلك لم يخب ظنّي، رغم أنّ صاحب المحلّ هناك سكنتهُ الحيرة لعدم تحدّثي سوى كلمات منكسرة من اللغة الفرنسيّة، ظنّ بادئ الأمرِ أنّي قبائليّة، تركته لتفكيره وأوهامه ولم أجب عن أسئلته، وغُصتُ مع «طوفان» في البحث، كنت أعرف بعض الحروف وبعض الكلمات العربيّة، لكن كانت المشكلة التي تواجهُني في تلقينها لِـ «طوفان». انتهى بي الأمر أن طلبتُ من صاحب المحلّ طباعة العديد من الأوراق، اعتمدتُها كمُنطَلَق.

في حدود الثالثة زوالاً خرجنا من هناك ولا أعلم فعلاً هل أخذ صاحب المحلّ المبلغ الصحيح أم لا، فلم يُرجِع لي شيئاً ممّا أعطيتُه.

عُدنا إلى البيت، ولأنّ كِلانا يتضوّر جوعاً، تناولنا ما تركتهُ لنا «شهرزاد» قبل ذهابها.

سمِعت جرس الباب، فتح «طوفان» الباب وسمعتُ صوت «شهرزاد»، فحملتُ أوراقي وهربتُ بها إلى غُرفتي، لُعبتي الآن أن لا يُدرك أحدٌ الأمر حتى أصِل مُبتغاي، بعدها سأكون بأفضل حال.

بعد المغرب، وبعدَ أن أسَدَل الليلُ عتمته وأُضيئت الأرصفة وهدأت حركة الشارِع المحاذي للمنزل، نزلتُ حيثُ كانت تجلس «شهرزاد»، كانت تُشاهد التلفاز، رَمَقَتني بابتسامة لكنّي واجهتُها ببرودةٍ شديدة، كُنتُ أحاول الابتعاد عنها قدر المُستطاع.

– هل كُنتِ نائمة؟

– لا.

– لماذا إذن كُنتِ حبيسة غُرفتِك؟

– ...

– أَلاَ تزالين غاضِبة من أمّك؟...

– أنا لا أغضبُ من أمّي، علاقتي بأمّي مثاليّة ولا أريد لأحدٍ أن يتدخّل في أمورنا. (قُلتُها وأنا أُواري البركان بداخلي وأتصنّع البرود والجفاء).

– ... عزيزتي... لستُ أتدخّل، سألتكِ عن حُسن نيّة فقط.

– اتركي أسئلتك لنفسِكِ إذاً!

كنتُ أحدّث نفسي بداخلي أنّه ليس عليّ لا احترامُها ولا التلطُّف في الحديث معها، بينما آثَرَت هي الصّمت، لكنّي بعدها أحسستُ بالذنب، فليستِ هي المخطئة على أيّ حال.

أكملتُ مسائي أحاول الهروب منها، أُشيحُ بنظري بعيداً كي لا أصطدم بها إطلاقاً، حتى يومِ الغد، حينَ تركَت لي ورقةً كتبت عليها بالإنجليزي أن لا نخرج من البيت فلَرُبَّما ستأتي شركة الاتصالات لتركيب أسلاك الاتصال.

صرخت:

– «طوفان»!!! (بغضبٍ أكملتُ بعد بُرهة صمت)... إنّي أحدّثك أيّها الأبله الصغير!... أين أنت؟

رحت أبحث عنه في البيت، وما إن لمحته حتى أمسكتُ أذنه أجرّه منها.

– ما الذي أخبرتَ به «شهرزاد» أيّها المخبول؟

– لم أخبرها بشيء (وهو يحاول نزع يدي عن أذنه).

– yalan! (كذِب).

– أقسِمُ لكِ، أتركيني أرجوكِ.

– ومن أين لها أن تُخمّن خروجنا البارحة؟ ألم أخبرك أنّ هذا سرّ بيننا حتى حين؟

– بلى، بلى لكنّي فعلاً لم أخبرها بشيء.

– أنت تكذب، وسأنتقم منك!

كنتُ أحاول إخافته كي يعتَرِف، لكنّ محاولاتي باءت بالفشل، قرّرتُ أن أمتنع عن تعليمه – لكنّي سأرمي قراري عرض الحائط كالعادة مع أخي فأنا لا أستطيع أن أغضب منه – وصعدت إلى غرفتي.

بعد الظهر جاء من كنّا بانتظارهم، عملاء الاتصالات، سألني أحدهم لكنّي لم أفهم قصده، خُيِّل لي أنّي سمعت كلمة «وَالدِيك» فخمَّنتُ أنّه يسأل عن والِداي، فأجبته بلغة أبعد ما تكون عن اللغة العربيّة، – فعذراً يا لغة الضاد لم أكن أعرف عنكِ الكثير – ولو سمعني غيره فلربما كان جعل منّي أضحوكة لكنّه صمت، ثمّ سألني إن كنت أفهم الفرنسيّة فأومأتُ رأسي أنْ نعم، لا أفهم لمَ كلّهم كانوا يظنّون أنّي قبائلية، رغم أنّي لم أكن أشبههم بشيء.

في آخر المساء عادت «شهرزاد»، أنا لا أملك أدنى فكرة أين تختفي طيلة النّهار، فلوْ كانت تقطُنُ قريباً لأرجحتُ أنّها تعود لبيتها أو عملها، لكن بحسب وصفها فبيتُها بعيد بمئات الكيلومترات.

بعد العشاء جلستُ معها وهي تُشاهد التلفاز، ذاك الذي أحسّ أنّها مُدمنة عليه، وبعد صمتٍ طويل سألتني:

– هل حضر عملاء الهاتف؟

– نعم.

– إذن صار لديكم اتصال بالإنترنت؟

– نعم، على ما يبدو...

– إذن ما بكِ حزينة ألم تُحدّثي أصدقاءك عبر الإنترنت؟

– لستُ حزينة.

– بلى وتتظاهرين بالعكس، عزيزتي عيناك تفضحانك فلا تُحاولي الإنكار.

لم تكن عيناي هما اللتان فضحتاني بل نبرة صوتي حينها، أو ربّما صمتي المطوّل جعلها تستنتج ذلك.

– غداً سنخرج سويّة، أعرف أنّكما لم تسيرا في الحيّ منذ قدومكما.

هناك أدركتُ أن «طوفان» لم يُخبرها بشيء فعلاً، وأنّها تركت كلماتها على القُصاصة تحسُّباً لا غير، نظرتُ حينها لِـ «طوفان» كأنّما أستَسمحُه على سوء ظنّي به، فأشاح بوجهه.

هل كُنتُ حزينةً فعلاً؟ ربّما... ربّما لأنّي استسلمتُ لفكرةٍ كُنت أرفضها، فلم أشأ التعلّق بشيء يربِطني يوماً بالمكان هنا أو يُذكرّني فيه لمُجرّد الذكرى، لكنّي رميت كلامي وفعلتُ ما لا أشاؤه... وذاك تحت غِطاء ما يُسمّى استسلام.

خرجنا سوياً، كانت «شهرزاد» تحكي لنا دونَ توقّف، علِمتُ منها أنّها تُمضي

يومهَا إمّا تتجوّل في المدينة وإما تلتقي صديقاتِها اللواتي أمضت شهوراً لم تسمع أخبارهن، اكتفيتُ بالإنصات والتعليق أحياناً، أمّا «طوفان» فكان مستمتِعاً بمُشاركتِها جُلَّ مواضيعها.

كذلك أمضينا أربعة أيّام أخرى، أحياناً نخرج برفقتها وأحياناً تتركنا في البيت وتخرج بمفردها، وكنتُ أكتفي بالاستماع ومتابعةِ «طوفان» وجنونه. لم أكن أشتاق إلى أمّي أو ربّما فعلتُ لكنّي كُنتُ أهمِسُ لنفسي أنّها هي السبب في كلّ هذا. أُمضي وقتي بين غرفتي وغرفة أخي «طوفان» وأحياناً أشارك «شهرزاد» جلوسها في المطبخ أو في الصالة. لم تكن تُزعجني ولم تسألني قطّ عن سبب غَرَقي في غرفتي طويلاً، وكانت كلّما احتاجتني تدقّ باب غرفتي وتنتظر طويلاً ريْثَما أُوضِّب أوراقي وأأذن لها بالدخول، فلا أريد لأحدٍ أن يراها الآن. صرت، حين خروجي معها أحياناً، أفهم بعض الكلمات دون حاجة لترجمتها لي، رغم كون اللهجة الجزائريّة فعلاً صعبة بالنسبة إليّ خصوصاً حين يُسرعُ النّاطق بها.

في تلك الأيّام خطَوتُ كثيراً في التعلّم، وعادت أمّي يوم الاثنين، انتظرتُها مُرغمةً في الأسفل، حضّرت «شهرزاد» العشاء بِحسبِ ما تقول أنّه تقليديّ، لم يهمّني الأمر بقدر تلك النظرة الحاملة لكلّ حقدٍ والتّي وجّهتُها لوالدتي لدى رؤيتها، أمّا «طوفان» فقد ركض لحضنها غير مبالٍ لأيّ شيء. ما إن أكملنا العشاء حتى تركتُ المطبخ نحو غرفتي، كانت «شهرزاد» قد اهتمّت بأمر إخبارهما أدقّ التفاصيل الواقعة في غيابهما عدا مكوثي الطويل بغرفتي، ولا أظنّ أنّها أهملته عن غيرِ قصد.

كنتُ حينها قد تقدّمتُ فعلاً، فبتّ أكتب بضع كلمات أو أكرّر بضع جملٍ كتابةً ونطقاً، كنتُ على عِلمٍ أنّ معظم الجزائريّين لا يولون اللغة العربيّة اهتماماً بالغاً خصوصاً في حديثهم، لذلك أدركتُ أنّي سأكون مختلفة عنهم لحدٍ كبير، لا بأس، فأنا مُختلفةً في كلّ الأحوال.

لم يأتِ «طوفان» إلى غرفتي كعادته لأُعلّمه بعض الحروف، كنتُ قد فرشتُ الأرض بأوراقي وأنا أحاول كتابة الجمل التي تعلّمتها، سمعتُ صوت أمّي فأسرعتُ لدفنِ الأوراق تحت سريري، دخلت فجأة:

– لماذا تحبسين نفسكِ هُنا؟ تعالي واجلسي معنا...

لم أجبها بغير نظرة آنيّة وصمت، ورحتُ أتصنّعُ البحث عن شيءٍ ما.

– إنّي أحدّثك!

حين ملّت من صمتي تركتني وذهبت، كنتُ أنتظر منها أن نتحدّث، أن تُحسّسني أنّها والدتي ذاتها التي كنت أعرفها، كنت أنتظر منها أيّ تفسيرٍ لتغييرها المُفاجئ، انتظرتُ أن نتحدّث كما تعوّدنا حين تغضب إحدانا من الأخرى، أو على الأقلّ أن تُحاول، لكنّها خيّبت أملي...

في صباح اليوم التالي ودّعتنا «شهرزاد» بعد أن أهدتني قلماً وكراساً وكتاباً، اندهشتُ حينها، ما أذهلني أنّ الكتاب كان باللغة العربيّة، كان كتاب «الأيّام» لطه حسين، كانت تبتسم ثمّ همست في أذني:

– إنّه من أروع ما ستقرئين.

لا أفهم كيف كانت تعلم كلّ شيء، لكنّي لم أعلّق إلاّ بكلمة شكر، متأكدّة أنّها ليست صدفةً هذه المرّة، لم يسألني بعدها أحدٌ عن الكتاب، لربّما ظنّوا أنّي رميته.

خرجنا عشيّة الخميس في جولة مع «عزيز»، كنت لا أزال حبيسة صمتي، لكنّ نفسيّتي احتاجت الخروج فما إنْ أدركتُ من «طوفان» أنّهم سيخرجون حتى جهّزتُ نفسي ولحقتُ بهم.

بين الشوارع والأزقّة التي كنّا نتخطّاها لم أنتبه إلاّ لمنظر مكتبة زُيّنت واجهتها

بشتّى الكتب، وكان ازدحام السير قد جعلني أطيل النظر بها، تمنّيتُ لو أستطيع دخولها، لكنّي صمتُّ رغم رغبتي بالسؤال، لمحَ «طوفان» عينيّ، فاستفسر هو عن اسم المكان، الذي لم انتبه إلاّ على نفسي أردّده همساً خشية أن أنساه... شارع «سانت جون» (Saint Gent) وصارت تلك المكتبة بعدها ومع مرور الشهور صديقتي التي أتردّد عليها دوماً..

كان «عزيز» دائماً ما يُردّد أنّ هذا المنزل مُؤقّت لا غير، وأنّه سيشتري آخراً عمّا قريب، لم يكن الأمر يعنيني، فكلّ الأماكن بعيدة عن روحي وفي كلّ الأماكن أنا لطيمةُ روح... بيْدَ أنّي بتّ أفضّل المكان، تعوّدتُ تلك اللوحة التي أراها مع مغرب كلّ يومٍ بغرفتي، حين تلمع الجدران فضيّةً... أحببتُ لعبة الصّمت والاختباء – مُكرهة – والشرود أيضاً، لم نتحدّث عن الأمر أنا وأمّي إطلاقاً، أنا آثرتُ السكوت وهي تركت كلّ شيء لحاله، أمري لم يعد يهمّها، صار كلّ همّها «عزيز».

كنتُ قد علّمتُ «طوفان» اللغة العربيّة، حروفها وبعض الكلمات اليسيرة وبعض الجمل. من فرط انشغال أمّي لم تنتبه أنّه صار له أصدقاء بعدَ أن بات يخرجُ كلّ مساء إلى الحيّ، كنتُ أراقبه من النافذة أحياناً، يحاول أن يتحدّث وينطق باللغة العربيّة الفصحى وحيداً، لكنّه قد تعلّم عن الأطفال بعض الكلمات الجزائريّة، التي كان يُردّدها لي، والتي كانت أصعب من اللغة العربيّة بحدّ ذاتها.

مضت شهورٌ ونحن على ذاك الحال، عُدتُ للحديث، لكن بتحفُّظ. وكان «عزيز» حين يحاول جعلي أتكلّم وامتنع وذاك ما يُلهب ثورة غضبه ويستفزّه، وأحياناً حين أهمُّ بالحديث تُسرع أمّي لتغيير الموضوع، باتت تُقرّر عنّي كلّ شيء ولم تُربّني قديماً على ذلك... حتى ذاك اليوم... عشيّة آخر سبتٍ من شهر يوليو (جويلية) وقد كان خِتام الشهر بِذاتِه، حين كُنت أُمازحُ «طوفان» على العشاء ولا أعلم سبب انزعاج والدتي من ذلك، نهَرتني لأتوقّف، فعاد الصّمتُ ليُخيّم عليّ.

– لا عليكِ يا «فيروز»، إنّهما يمزحان فقط... ثمّ قولي لي، هلْ أخبرتهما عن المفاجأة؟

أعلم أنّها لن تكون مفاجأة، بل إحدى القرارات الغبيّة التّي يُقرّرها هو بحياتنا نحن، ولا يلقَى من أمّي غير التصفيق... توقفتُ عن الأكل، انتظر أيّ المصائب ستحلّ! ربّما الأمر يخصّ البيت وأنّه اشترى الآخر المزعوم.

– لم أفعل بعد. (أجابته أمّي).

– ماذا تنتظرين؟

كانا يتحدّثان بالعربيّة ظنّا أنّنا لن نفهم.

– أخافُ أن يغضبَا مُجدّداً.

– لا تخشيْ شيئاً، ثمّ هما صغيران، وما أدراهما أين تكمُن مصلحتهما؟

تمنّيتُ حينها أن أرمي صحني بوجهه، من أعطاك حقّ التفكير عنّا!!! لكنّ «طوفان» أحسن الردّ:

– ذاك إنْ كُنتَ ترى جدارتك بمعرفة مصلحتنا أكثر منّا!

لم أشأ أن تُفضح لعبتنا فجأة، ولأنّ الدهشة غطّت وجهيهما أسرعتُ بالنّهوض مُتحجّجةً أنّي قد شبعت، لربّما يشغلهُما ذلك عن أمر فهم «طوفان» حديثهما والرّد عليه، لكنّ أمّي أخيراً تكرّمت بقولها:

– حضِّرا نفسيْكُما، فغداً ستذهبان عند «شهرزاد» وستقيمان عندها.

– ظننت أنّنا أولادكِ أنتِ لا أولادها هي! (قُلتها بتحدٍّ والحيرة تَقطُر من حروفي).

– ستقيمان هناك إلى حين.

كيف ولماذا؟ لا أدري، وليتني أدري لكُنت أخبرت «طوفان» الذي ما عاد يفهم أيّ شيء... ومتى كانت تنوي إخبارنا يا ترى؟... لمْ أنَم ليلتها، كُنتُ أُوضّب حقيبتي وأجمع أوراقي وأنهيتُ لأجمع حاجيات أخي كذلك، كانت تلك آخر مرّة رأيتُ فيها أرضيّة الرُّقعة بغرفتي، فمعَ نسيم الفجر انطلقنا. لا أذكر كم من الوقت سِرنا، فقد سرقني النّوم طوال الطريق، حتى فتحتُ عينيّ على لافتة كُتِب عليها اتجاه «بلديّة الأسنام» كانت الطريق وسط الجبال، وحين ظننتُ أنّنا بلغنا القمّة ظهر طريق جانبيّ يوصل إلى بيتٍ حجريّ على حافته ركَنَ «عزيز» سيّارته، وحمل حقائبنا إلى الداخل، كانت «شهرزاد» بانتظارنا، لم تأتي والدتي معنا، على كلّ حال فهمتُ ما تصبُو إليه، وذاك ما كنت أخشاه...

دخلنا بيت «شهرزاد» بعدَ أنْ قَفَل «عزيز» عائداً بسرعة. لم يكن في البيت غير عجوز طاعنة في السّن، أخبرتنا «شهرزاد» أنّها والدة «محمد»، كان سقف البيت منخفضاً، فلن تتعب بالتحديق أبداً إلى تلك الثريا المتدلّية والنّاشرة لضوئها حتى في وضح النهار فالنوافذ هنا لم تكن كبيرةً بالقدر الكافي لإنارة تلك الصالة التي تتوسط البيت، بُسِط في الأرضيّة بِساطٌ مزركش الألوان، وبضع أواني هنا وهناك وُضعت بغرض الزينة أو لغيرها، ومائدة من خشب وسط ذاك البساط، تعلوها علب أدوية وكوب ماء لا بدّ أنّها تخصّ أمّ «محمد»... كانت «شهرزاد» تتحدّث سائلةً عن أحوالنا، ثمّ تذكّرت على حين غفلة وسألتني:

– تعلّمتِ العربيّة، أليس كذلك؟

لم أجد سوى ابتسامة أجيبُها بها، إذن هي فقط تتكهَّن الأمور. جهّزت لنا أنا و«طوفان» غرفة صغيرة وأكّدت لنا أنّ الأمر على حدّ قول «عزيز» لن يطول فمتى يُنهي «عزيز» مُعاملات البيت ونقل الأثاث نعود إلى قسنطينة، ولمْ أفهم لِمَ لمْ يُخبرنا

أحد قبلها بهذا السبب لقدومنا هنا.

كان جوّ البيت يبعثُ الدفء في النّفوس، بتُّ أراه كبيتِنا الذي تركناه في إسطنبول، لكن قبل وفاة والدي...

غشاوة الأمان ذاتها تغلّفه، حتى زواياه بتّ أراها أوسع من صدره وأعتاب أبوابه. اهتمت «شهرزاد» به حتى بات تحفةً مُصوّرة، برغم بساطته الشديدة، عدا ذاك البساط المزركش القبائليّ والرسوم التي تقترن ببعض حوافِ الأواني.

يركض في ببيتها بين الحين والآخر قط رماديّ قالت لي أنّها لا تجد له اسماً تناديه به لكنّه يفهمها دون الحاجة لمناداته بأيّ اسم كان. يسرق النوم مساءً على حافة كرسيّ أم «محمّد» حين تقوم الأخيرة من مكانها، يغتنم الفرصة لينام بين طيّات ذاك اللحاف الأزرق، وكالعادة الويل له لو لمحته العجوز فوق كرسيّها وعلى لحافها...

«شهرزاد» كانت إنسانة رائعةً فعلاً، فبِرغمِ تذمّر أمّ «محمّد» كثيراً إلاّ أنّي لم أرها يوماً غيرَ مبتسِمةٍ لها، أحسستُ معها أنّي لستُ غريبةً، وهناكَ فقط عرِفَ الكلام طريقه لي مُجدداً... كانت حياتها تقتصِرُ على المنزل ووالِدة «محمّد» وذاك ما يُفسّر شوقها العظيم ل. قسنطينة.

على مرمى البصر كانت الجبال تُحيط بنا من كلّ جانب، أشجار البلّوط والأرز تكاد تستُر الأرض عن حبيبتها الشمس، حتى أنّ الجوّ برغم أننّا في أواسط فصل الصيف إلاّ أنّه لم يكن حاراً البتّة، وجدتُ غايتي هناك بين نفحات رائحة أوراق السرو وعلى سمفونيّات خرير السيّول المجاورة، وكانت «شهرزاد» تساعدني فبدأت الكتابة...

كتبتُ عدّة محاولات، وكان مآلُها التمزيق، وإعادة بعث الرّوح في الكلمات من

جديد، تخبرني «شهرزاد» دوماً أنّ عليّ أن لا أترك لنفسي فرصة لترتخي بها حبال أفكاري أو أن أنسى شيئاً ممّا تعلّمتُه، تقول لي ما دُمتُ أحببتُ اللغة فعليّ أن لا أيأس ولا أتوقّف...

«شهرزاد» التي كانت تملك في زاوية بيتها رفوفاً تضمّ العشرات من الكتب والقصص والروايات على اختلاف لُغاتها، فقد كانت الكُتب مؤنِسها الوحيد في غُربتها بين عائلةٍ لا تتكلّم لهجتها. علِمتُ أنّها منذ عامين طلبت من «محمّد» الانتقال إلى المدينة لكنّ والِديه لم يقبلا طلبها، وكان ذلك قبل وفاة والد «محمّد»، فلم تجد «شهرزاد» إلاّ أن تشترط عليه أن يُهديها كلّ شهر كتاباً، لكنّه كان أكرَمَ من ذلك...

حدّثتني أنّها لم تكن تسكن هذا البيت قبلَ ثلاثِ سنوات، كانت في قريّة أبعد من هنا بكثير، وأنّها حين تزوّج «محمّد» بها منذ خمس سنوات قاطَعَتهُ كل قبيلته وعائلته، ففي عاداتِهم لا أحد قبائليّ يتزوّج من غير القبائليّات، وغيرَ ذلك فهو خرقٌ للقوانين وإخلال بالأعراف – على حدّ تعبيرهم – وليت الحكاية عرفت نهايتها عند هذا الحد، فرغم مُقاطعة القريّة لِ «محمّد» واعتباره خارجاً عن القانون فقد أُوذِيَ كذلك والداه من عائلته الكبرى، ووُوجِها بالقسوة في المعاملة لسماحِهما لابنهما بخرق القوانين، وذات عشيّة لدى عودة «محمّد» الذي اصطحب والده للطبيب وآثرت والدته و«شهرزاد» مُرافقتهما، عادوا ليروا ما يدمِع القلب بدل العين، بيتهم قد لَقَفتهُ ألسِنةُ النيران، ليس لِعطبٍ ما، ولا لشرارة كهرباء طائشة، ببساطة كانت تلك لغة عائلته الكبرى لقول: «اغرب عنَّا فلم تعدْ منّا». حينها رحل من هناك مُجبراً، ولم يجد بعد عِدّة أشهر غير هذا البيت الذي يسكنوه حاليًّا، بعيداً عن الفوضى وأبعد عن العائلة الكبرى. علِمتُ حينها أنّ «شهرزاد» عانت الأمرّين وبرغم ذلك لا تزال صابرةً على كلّ شيء، وعدتها لو أصبحتُ كاتِبةً ذات يوم أن أكتُب عن قِصّتها فلماً قصيراً، ضَحِكت، وضحِكتُ ونِمتُ ليلتها...

بين الفينة والأخرى كنّا نخرج أنا و«طوفان» لنجول بين أطراف الغابة المُجاورة، لم تمنعنا يوماً «شهرزاد» من ذلك ولم تكن أصلاً تمنعنا من أيّ شيء، بل لطالما كانت سنداً لنا. ذاك الصباح منعتنا من الخروج لأوّل مرّة، ثمّ سمحت لنا شريطة توخّي الحذر، لكنّي رُبّما لم أنتبه لكلامها، فكنتُ شاردةً حين كان «طوفان» يُناديني، لأستدير فأجد صخرة تتدحرج نحوي، ركضت هاربة لأسقط وأنحدر أنا الأخرى، وفقدتُ وعيي...

كان عزائي أن تتصّل والدتي لتطمئنّ عليّ أو أن تحضر لتراني بعد كلّ هذا... تلك النّدوب التي رسمت ملامح وجهٍ لا يُشبه وجهي، خدودي الذّابلة أو التي صارت أشباه الخدود، حيثُ حفرت الدّموع طريقاً أبديًّا تارةً ألماً وتارةً حزناً، حتى أنّ المرآة صارت عدواً لي، بِتُّ أتوارى كلّما لمحتُ مرآةً أمامي، وكم حاولت «شهرزاد» أن تساعدني، تراني كلّ يومٍ أجاهد نفسي على رسمِ شِبهِ ابتسامة أُرضي بِها أخي، وتسمعني كلّ ليلةٍ أُفجِّر السكون بصخبِ دموعي... مضَت عدّة أيّامٍ وأنا على حالي...

وقفت «شهرزاد» تفتح ستائر نافذة الغرفة كي تُتيح تسلّل خيوط أشعّة الشمس لعلّها تجلب قليلاً من الدّفء لقلبي، أنا التي لم أكن نائمة، حتّى أنّي أشكّ أنّي أنام ليلاً أم أخالُ ذلك من تعبِ البكاء أو أنّي فقط أبقى أنتشل جُثتّي الخاملة حتى تُشرِق شمس يومٍ جديد، تُعادُ كتابته بحروف الأيّام الماضية، فحين تبتسم تلك الشمس للجميع غَدَاةً، أُدرِكُ أنّه ليس اليوم الذّي أنا بانتظاره، فدوماً هي تُهدي الجميع انتصاراً، ولا تُهديني غيرَ كلمةِ: «في الغد ربّما يا فتاة».

جَلَست «شهرزاد» على حافة الفراش، تَعِي جيّداً أنّ ابتسامتي لها زائفة، أمسكت يدي وقالت بحنان:

– حبيبتي، ألَنْ تخرُجي من هذه الحالة؟ أَوَ هَلْ حكمتِ على هذه الشمس التّي تريد رُؤيتكِ بالإعدام؟

– لا يا «شهرزاد»، هذا قدري وأنا على أتمّ الرِضا به، مادام قَدْ رضاه لي الله فمؤكّدٌ به كلّ خير.

– إذن ما الذي يُحزِنُكِ؟ ألمْ تتحسّن حالتك؟

– لا شيء صدّقيني، فقط أريدُ السكينة لنفسي فإنّي أحسّ أنّها مُرهقة.

– وهل الهُدوء في البُكاء كلّ ليلة؟

صمتُّ وأنا أحسّ أنّ سِرّي قد كُشِف، لطالما تظاهرتُ بالقوّة وها أنا أسقي بِدموعي رمادَ نفسي المُنكَرَة.

دخلَ «طوفان» يقطَعُ أفكاري، بعد أن خرجت «شهرزاد» وقد باءت محاولةٌ جديدةٌ لها بالفشل في إخراجي من قوقعة الحُزن، نظرتُ إليهِ بإشفاق، ما عُدتُ أصلُح لشيء، حتى لأَهَبَ ابتسامة. أراني عاجِزة، فوجهي كلّه جراحٌ والأقسى أنّ روحي تشوّهت، حتّى كلام «طوفان» ومواساتُه لي أنّي ما زلت مجنونته لم يُؤثِّر فيّ البتّة.

لقد كسرتُ ساقي في الحادث الذي وقع لي، ولولا أنّي لم أكن بعيدةً عن البيت لما استطاع «طوفان» مُناداة «شهرزاد» التي حملتني بانتظار الإسعاف، استفقتُ في سيّارة الإسعاف لأجدَ «شهرزاد» معي، فاطمأنّ قلبي وأغمضتُ عينيّ مجدداً. لم تتوقّف جروحي عن النّزيف لوقتٍ طويل، ممّا استوجب نقلي إلى مستشفى المدينة، لا أذكر جيّداً التفاصيل فقد كُنتُ مرهقة للغاية، لدرجة أنّ عقلي كان يأبى تصديق الفكرة أنّي على قيد الحياة.

جلس «طوفان» أمامي ووضع رأسه على كتفي:

– أعلمُ أنّكِ انتظرتِ مجيء أمّي... لكنّها لم تأبه للأمر، تقول «شهرزاد» إنّها مشغولة، لكني لا أرى مبرّراً لما تفعله فعلاً...

في حين امتزجت كلماته بنبرة ألمٍ وحزن تابع وغصّة في حلقة تجعل متابعة نطقه للجملة صعباً:

– هل تَخَلَّت عنّا فجأة؟... ما تفسير أن تجلِبنا كلّ هذه المسافة ثمّ ترمي بنا هنا وتبعدنا عنها؟ وكيف لم تسأل أبداً عنّا؟...

لَكَأنّ «طوفان» فتح جِراحي كلّها دفعةً واحدةً، وكيف لا؟ كيفَ لفتاةٍ في السادسة عشرة من عمرها وصبيّ في الثانيّة عشرة أن يتقبّلا فكرة أن يُتركَا بين الأغراب وقد كبِرا في دفء عائلة...

* * *

أحسستُ لأوّل مرّةٍ بنفسي لا أعرِفه! تغيّرَ كثيراً، وكبر فجأة... كان في خيالي لا يزال «طوفان» الصّغير المدلّل الذي يعشق المُزاح ويتظاهر بالزّعل لأطبع على خدّه قبلة حنان فيرضى... بِتُّ لا أعرفه، له الملامِح القديمة نفسها لكنها كانت أقلّ هُدوءاً، يُشبِهنِي إلى حدٍّ ما، ما زالت البراءة تُغطّي كلّ أُنمُلةٍ فيه، وما زال حبّي له كما كان تماماً أو رُبّما كبُرَ كما كبر هوَ... رغم أنّه هو، لكنّي أعجز عن إيجاده في نفسه بحدّ ذاتها... لبرهةٍ نسيتُ أنّه لا يزالُ واقِفاً أمامي بدهشة، كانت عيناي تَفيضان من تلقاء نفسيهما، لم أستطع أن أتمالك نفسي عن البُكاء... فقلتُ ببحّة الدّموع:

– Tufan» Nasılsınız«? (كيف حالك يا طوفان).

كأنّه تعجّب من كلامي ثمّ حضنني، كأنّ غِيابي لم يكن سنتين، بل قرنان من الزمن.

– بخيرٍ يا مجنونتي... بخير...

ثمّ أسرع وهو يقول أنّ عليه أن يُحدّث أحداً ما، لا أعلم من ولم أشأ التطفّل... لبُرهةٍ اغتنمتُ فرصة غيابه في شرودٍ عابِر، أين أنا التي كانت، صِرتُ أجهلُ فعلاً كيف السبيل للفرح، أظنّ أنّه أحسّ أنّ الكلام لم يعد يَستهوِيني كما حين كنّا صغاراً... كلّما نظرتُ إلى عينيهِ أحسّ أنّه يُعاتبني على شُرودي عنه، على غيمةِ الأحزان التي كست جسدي الذي كان يُشعّ مرحاً، على خوفِي من أيِّ سعادةٍ تريد بُلوغِي...

حاولت الهرب من نظرات العتب التي يطعنُني بها بكلّ براءة... صار يُميّز فعلاً الضحكة المُزيّفة التي أجاهد نفسي في إظهارها على شفتيّ... أراقبه، فيه بعض

تفاصيل وجهي لكن ليس بالحزن ذاته، تانك الشفتان الرقيقتان اللتان تبتسمان رغم العتب ابتسامة تُعيد الحياة إلى بعضِ أشلائي، وتانك العينان العاتبتان اللتان لم تغبْ عنهما لَمعتُهُما للحظة، يُذكرُني بكلّ ما كان منذ زمنٍ مضى، بكلّ شتاتِ الذكريات وبكلّ ما سَبَتَ منها...

ركبنا سيّارة الأجرة، لم أختر مطعماً بعيداً عن البيت، بل في أحد مداخِل شارع «الاستقلال» الموصِل إلى ساحة «تقسيم»، كيْ أُوفِّر على نفسي جُهد العودة إلى البيت وثمنه، وكذا أغتنم فرصة العودة ومشاركة أخي سبيلها. لم يتحدّث «طوفان» كثيراً في الطريق، لكنّه لم يصمت بعدها...

– ما أخبارك «طوفان»؟

– كلّ شيء جيّد... على ما أظن.

لم أسأله عمَّن تركهم في الجزائر، وأعلم أنّه يعلم أنّي لن أفعل...

– ... طَمِّنيني عنكِ أنتِ!

– بأحسنِ حال.

– مُتأكّدة؟ (ناظِراً إليّ نظرة تشكيك).

– كلّ التأكد.

– لا يبدو ذلك على كلّ حال. (وأشاح وجهه).

– هههه، المظاهِر خادعة يا عزيزي، بَيْدَ أنّي كنت مُتعبة في الآوِنة الأخيرة فقط.

– لا بأس... هُناك سؤال يجول بخاطري ولطالما أردتُ معرِفة جوابه...

– وهوَ؟

– ما زِلتِ تكتبين، أليس كذلك؟

أحسستُ صفعةً بِيدٍ من جليد على خدِّي، ما هذا السؤال، كنتُ أكتب والكتابة عندي ليست مُجرّد كلمات، إنّما قبل شهورٍ ارتخَت حِبال الكلمات من فكري وذبُل سواد القلم الذي كان يرسم حُزني، حتّى قصائد الفرح التي كنتُ أكتُبها لأسعد بها في خيالي... لم أعد أكتُب...

– أنا يا «طوفان» لا أكتب... أنا أنعي نفسي، أو أنتشِلُ جثتي، وأحياناً أتلذّذ بِنشوتي، ذلك ما تدعوه أنت كِتابة، ذاك ما يراه الجميع كِتابة... هو أعمق من ذلك بالنسبة إليّ، وكلّما زاد اهتمامي بعمق ما أكتب زادت سيُول أحاسيسي وانتفض قلبي يُزيلُ بقاياه عن رصيف كل إحساس...

– جميل، ما زِلتِ كما عرفتك... لكنك لم تُجيبي، هل لِي بإلهامٍ آخر؟

– أُعاني فترة خمولٍ فلا تأمَل كثيراً.

– هُراء... أعلم أنّ لديكِ بين ثنايا أفكاركِ الكثير.

– رُبّما...

– لكن أريد أن أسأل.

– نعم «طوفان» اسأل ما تشاء.

– لماذا لم تسألِي عن أحدٍ في الجزائر منذ عودتِك إلى هُنا ؟

– لا أريدُ الخوضَ في الحديث الآن.

– لا... فقط أردت أن أفهم إن كان ما قيل لي حقيقة أم وهماً شاءوا أن

يسرُدوه.

– لا يهمّني ما يقوله أيًّا كان، ويجب أن تستوعِب هذا جيّداً.

– الغريب أنّه رغم كلّ ما رسموه في عقلي إلاّ أنّي أراكِ لا تزالين أنتِ على حالك، بعض الحزن المضاعف ليس إلاّ.

أطلقتُ ضحكةً ملأت الجوّ حولنا، عساها كانت ضحكةً ساخرة.

– وهل قالوا لك أنّي تغيّرتُ مثلاً؟ أنّي لم أعد ذاتي أنا؟ أم أنّهم أخبروك أنّي لم أعد أهتم بأخي حين رحلت؟!

– ذاك ما قصدت...

– عزيزي، فلتُدرِك شيئاً... لكلّ منّا قِصّة يعيشُها، كُتِبت في دفاتِر أيّامِه، وإنْ كان راضياً عنها أم لا فهُو الوحيد الذي سيتمكّن من تغييرها ولا أحد غيرُه...

– وأنتِ قررّتِ أن تُغيّري؟

– فلتترُك لي مجالاً كيْ أكمِل...

– تفضّلي!

– لكلّ من تلك القصص نوتةٌ يُعزف عليها، بعضُ النغمات تُسمَعُ حزينةً وبعضُها نرقص فرحاً معها، لكن، أيًّا كان، هناك دوماً تلك النّوتة الأخيرة في السلّم، حين نقفز هرباً... ستُدرِكُ يا «طوفان» ذات يوم أنّي كُنتُ على حق...

– أكاد أجزم أنّي لا أفهمكِ، يا فتاة تحدّثي العربيّة أو التركيّة، أحسّ أنّكِ تتكلّمين لغةً أجهلها!

ابتسمتُ بسُخرية:

– هل تستهزئ؟ أم أنّك فِعلاً نسيتَ لُغتَك الأم.

– لا أبداً... meraketme (لا تقلقي).

– بلى يا «طوفان»، منذ أن ذهبنا إلى هُناك كان الخطأ خطئي... وأعترف بذلك. ولو عاد بي الزمن لأصلحتُ العديد من أخطائي وأوّلها اتجاهك.

– لم تُخطئي بتَاتاً.

– بلى ولن أُسامح نفسي.

– لا أفهمكِ!

– منذ ذهابِنا إلى الجزائر ورّطتُ نفسي وورّطتُك معي بتعلّم اللغة العربيّة...

قاطعني:

– لكن في كلّ الأحوال كان علينا تعلّمها وقد ساعدني ذلك كثيراً بعدها...

أكملتُ حديثي كما لو أنّي لم أسمعه:

– أنا كُنتُ قد أمضيتُ ما يكفي هُنا لأتعلّم، أمّا أنتَ فقد طَمَستُ فيك كلّ شيء تُركيّ، ويا ليتني انتبهتُ حينها...

صمتّتُ ولم يُجبني هوَ... حتى وإن كان في كلّ الأحوال سيتعلّم العربيّة، لكن لم يكن عليّ أن أحوّلها حجراً في طريقه لا بُدّ أنْ يتخطّاه. كان من المُمكن تلقينُه العربيّة مع الحِفاظ على كلّ شيء تُركيّ فيه، إلاّ أنّي لم أفعل ذلك، برغم أنّي حتى اليومِ لم تَزِدني الأيّام إلاّ عِشقاً للغة العربيّة.

أنا حتّى لا أعرفُ ما الذي جاء به إلى هُنا بعد كلّ هذا الوقت، مشينا طريق العودةِ إلى البيت، لا أدري لماذا ذكّرني المشيُ مع «طوفان» بوالِدي – رحِمه الله –

أحسستُ عِدّة مرّات كأنّه هو، ولَكَم تمنّيتُ ذلك... كان يمزح طوال الطريق، رغم أنّه لم يعش في وسطٍ يدعو للمرح، كان كلّ شيء من ماضينا مُكهرباً، كأنّما كُتِبَ على جُدران ذاكِرتنا «عدم الاقتراب – خطر الموت» أو كأنّها سُيِّجت كسِياجِ «شارل وموريس» بالكهرباء والألغام. سألتُه حين اقتربنا من العمارة:

– هل تذكر أيّ عِمارة كنّا نسكن؟

– مممم... لا أظنّ...

– حسناً، أيّ طابِقٍ كان؟

– ربّما الأوّل أو الثاني.

ابتسمتُ ابتسامةً زائفة. نَسِيَ هذا الطفل كلّ ذكرياته هُنا، بات لا يذكُر خروجه للعب بِسِنّ السادسة مع أطفال الحيّ في الساحة المُقابلة، نسيَ بيتنا... لا بل نسيَ ما هوَ أكبر، نسيَ العائلة التي كنّا عليها قبلَ ذهابنا من هنا... ربّما أنا لم أنسى لأنّي كنتُ أكبر، أو ربّما لأنّي خَلَّدتُ كل ذكرياتي معي، دفنتُها ما إن شيَّعتُ الفرحَ للذكرى، ومضيتُ وقد نسيتُ كيفَ تغدو الابتِسامة في الوجه صدقة.

– كم مضى من الوقتِ لمْ تزُر هذا البيت؟

– لم أعد أذكُر.

– جميلٌ أنّك تذكُرني أنا إذاً... بالمُناسبة، من أين لك برقم هاتفي؟

– هل نسيتِ أنّك لم تُغيّريه منذ ذهابكِ؟

– لا تُحاوِل المراوغة، لم يكن أحدٌ يعرف رقمي.

– «شهرزاد» أعطتني إيّاه.

– أتمنّى أن تكون عند وعدِها لي.

– بلى لا تخافي، حتّى أنّها أخبرتني بكلّ نصّ المعاهدة التي تلَوتِها عليها! (يضحك ساخِراً).

– أمرٌ غيرُ مضحكٍ يا «طوفان»... آه لو كنتَ تعرف!

دخلنا البيت، أنا بِذاتي أحسست أنّ روحه عادت من جديد، وكِدتُ لا أصدّق نفسي، بات أكثر إشراقاً إن صحّ القول، لَكأنّي أراه في يومٍ مشمس ونحن أدركنا منتصف الليل... كُنتُ قد وضعتُ باقة الأزهار التي اشتريتُها هذا الصّباح في مزهريّة في غرفة الجلوس، أذكر أنّها كانت ذابِلة تماما لأنّي أمضيتُ طوال اليومِ أهيم كطيرٍ غريب، لكنّ الزهور غَدتِ كأنّها جديدة، انتبه «طوفان» لاندِهاشي:

– يظهر أنّكِ أنتِ من كنتِ غريبةً عن المكان!

– asla (أبداً).

– أووه... تُحبّين الورد كما كُنتِ تماماً، إذن لم تتغيّري فعلاً...

فضّلتُ أن لا أُجاريه في مُزاحه، فقد أحسست أنّه صار ثقيلاً. غيابُه عن ناظِري عاميْن كانا كَفيليْن أن يغيّرا طِباعه.

– هل تتذكّر غرفتكَ أم لا؟

– أذكرها، لا تخافي. لستُ عجوزاً هرِماً...

– خشيتُ أن تكون نسيت حتّى اسمك هُناك!

– بالمُناسبة، أينَ كانت غُرفتي؟

– مُزاحكَ ثقيل، هل أخبركَ أحدٌ ما من قبل؟

– بحسبِ ما أذكر... كثيراً.

– «طوفان» حبّذا لو تُقلّل من هذا الهراء، واتبعني لأريك غُرفتك...

– كما أذكرها بالضّبط. لماذا لم تُغيّري ما فيها، كلّ شيء أصبح رثاً هُنا!

لمحتُه بنظرة استِغراب، كأنّه أخذ من «عزيز» بعض الغرور والتعجرُف.

– بالمُناسبة، لقد أخذتُ غرفة والديّ إن كُنت تذكُرها، أمّا غُرفتي فقد صارت مكتبة، لكنّها مغلقة، فلا تُحاول الاقتراب أو الدّخول إليها!!!

– حاضِر... ماذا أيضاً سيدي القائد؟

ربّما لو كُنتُ غيرَ مُتعبةٍ لكنتُ رأيتُ مزاحه كما قبل، لكن منذ دخولي المنزل صرتُ لا أحتمل أيّ كلمة مطلقاً.

قضينا عند «شهرزاد» شهراً ونصف، كنتُ أمضي كلّ وقتي في البيت بحُكمِ ساقي المكسورة، لكني أظنّ أنّي كنتُ نافعةً بعض الشيء، فقد كنتُ أحياناً أساعدها وذاك عقِب استفاقتي من غيبوبة الحزن.

كانت مع نهاية كلّ أسبوع تحضّر لنا وجبةً للخروج في نزهة بين الجبال، أحياناً ننزِل الوادي العابر بين الجبال هُناك، والذي صارت ميّاه سيوله تجفّ يوماً بعد يوم. كنتُ أمضي نزهاتي في الكتابة، فقد كان الجوّ يساعدني على ذلك، حتى «شهرزاد» لم تبخل عليّ بشيء، لا هي ولا «محمّد»، ولم أعد أحسّ مُطلقاً أنّهما غريبان...

عشيّة الخميس الثاني من أيلول (سبتمبر) اتّصلت والدتي، التي لم نسمع

صوتها منذ مجيئنا إلى هنا، والتي كلّما حنّت علينا «شهرزاد» واتصلت بها اعتذرت بأتفهِ الأشياء. كنتُ أكتُب حينها، و«طوفان» يراقبني بصمت، يعلم أنّي لا أفعل غيرَ إفراغ غضبي على الأوراق كيفما كانت كتاباتي، حتّى لو كانت خيالاً، ثم خطِف ورقتي وصار يقرأها بصوتٍ عالٍ، ذاك ما جعل «شهرزاد» تبتعد وهي تتحدّث في الهاتف، هممتُ باللحاق بها، لكنّي توقّفتُ أشاهد «طوفان» وهو يقرأ بشغفٍ كأنّه هو الكاتب رغم أخطائه في القراءة:

«مللتُ الأعذار فما حاجتي اليوم لها

اعتزلتُ الشوق فكان هوَ من يجتاحُني

ركضتُ هارِبة فما هذا اختياري ولا قرارِي

من ذا الذّي عقِب انهياري استولى على داري

أَهل بغرورِك ظننتَ أنّي ما ملكتُ سواك

ارمِ سيوفك فأنا لم أخسر يوماً فنادِ استسلامك

علَّني أعفو عنه بحبري الشفاف على الأوراق

وأرحَمَه من عِبادتي، فإنّي لَأُشفِقُ عليهِ وعليك

ما عاد شيء يُبقينا حتّى ذكراك

أرتشِف النّسيان في فناجين ذكرياتك

فأجِدني أتمخّض ذُلّ غدرٍ من أنانيٍّ مثلك

أخبرتُك ما عاد شيء يُبقيني بقربِك

لكَ الرّحيل فارحل من كُتبي وكلماتي وخُذ جُثّتك

فانشغالي بأشلائي جعلني لا أذكرك

اغرُبْ فما أنتَ غير اسمٍ في لائحة الأشواك

أتمنّى لو بأنامِلي أنا أنتزِعُ بقاياك

لُعِنتَ أنتَ ومن سبِقكَ سُخريَةً بقلبي

لُعِنتَ فلآلِئي أغلى من أن تُذرف على أمثالك».

صمت «طوفان» ولم يرفع عينيه، أطال وهو كذلك وطال انتظاري، أنا التي كُنتُ أحاوِل استبدال الكلمات البسيطة في كتابتي بكلمات من مستوى أعلى مستعينةً بمعجمٍ وبما تكتنِزه «شهرزاد»، ثمّ فجّر السكون:

– تمادَيْتِ!

كِلانا يُدرِكُ أنّ مشاعري وغضبي مما يحدُث لنا أترجمه في هكذا كلمات، رمى كراسي ثم قال:

– جرّبي أن تكتُبي عن الفرح، سيُساعِد كِلينا.

– لكن هذا ما أشعُر به، وهذا ما استطعتُ كتابته.

– تخيّلي!

– خيالاتي كلّها رماديّة، ألا ترى أنّها خيال؟

– تفاءلي!

– من قال أنّي مُتشائمة؟.... آآآي، تعال هُنا... لم تُعجِبك كتابتي؟

– ربّما ذات يومٍ ستُعجبني، لكن الآن لا.

– شكراً على كلّ حال.

أظنّ أنّها كانت آخر مرّة يُبدي فيها رأيه في ما أكتبه، فمِن يومها لم أعد أسأله ولم يعُد يخبرني برأيه في ما يزعمُ أنّه لا يقرأه.

أخبرتنا «شهرزاد» أنّ «عزيز» سيأتي يومَ السّبت لإعادتنا إلى «قسنطينة»، وكان ذلك، وكم أحسستُ يومها بالظلم، فيومَ كُنّا بأفضل حال في بيتِنا تراءى لأمّي الزواج، جِئنا معها، فتراءى لها أنْ ترمي بنا عند «شهرزاد»، وها قد رضينا وتعوّدنا عليها، والآن لا أعلم المُستَجَدّ خلف هذا... سئمتُ هذا الوضع فعلاً... تغيّرت معاملة «عزيز» لنا، إلاّ أنّي لم أتغيّر أبداً في تصرّفاتي معه، لا أحبّ التمثيل ولا النّفاق، أكرهه وهذا سببٌ كافٍ، لا أستطيع أن أكره أحداً وأنا أحدّثه كأنّ لا شيء في قلبي له... أكرههُ لأنّي أرى فيه الشيء الوحيد الذي قلب حياتنا، أرى فيه الشخص الذي دمّرنا جميعاً، مِثلُه مِثلُ الموت الذي خطف والدي وقلب حياتنا، لكن لا لوم على الموت، إنّما اللّوم على هذا الذّي أراه أمامنا، الشخص الوحيد الذي كسر الرّوح التي كانت تعيشُ فينا ومهما كان لن أستطيع أن أغفِر له.

عِشنا بعدها على ذكريات بِضعِ سنواتٍ عِشناها في صِغرنا، أمضينا عِدّة سنوات بين جُدران بيتٍ صغير وسط عمارة في حيّ غير بعيدٍ عن مسكنِنا الأوّل، أظنّ أنّ الحيّ كان تابِعاً لمقاطعة «سيدي مبروك» فبِما أنّ «عزيز» تجارته هُناك، كان يرى أنّه من الأفضل البقاء قريباً. لم تعُد علاقتي بأمّي كما كانت لكنّي حاولتُ رغم كلّ شيء، لم أستطِع أن أنسى أنّها هي من سمحت لكلّ هذا بالحدوث، حتّى أنّنا لم نُناقش ذهابنا عند «شهرزاد»، تناسيْنا الأمر، كانت تلكَ طِباعاً جديدة خلقناها بِعكسِ عاداتِنا، لكن فقط كي نتمكّن من العيش تحت سقف واحد... التحقتُ وأخي بالمدرسة، رُغم جهلي السبب الذي جعلنِي أُسَجَّل عاماً أقلّ من المفترض، إلاّ أنّي آمنتُ أنّ لِ. «عزيز» يداً في الموضوع، كنتُ قد حافظتُ على سرّي بحبّ اللغة

العربيّة واجتيازي أشواطاً في تعلّمها، لكن حتى ذلك لم يكُن لِيخلق أيّ فارق، فلم يسألني أحدٌ من يومِها لا كيْف حال دِراستي ولا إن كُنتُ أحتاج أيّ مساعدةٍ فيها، فتكفَّلتُ بأمرِ دراستي بنفسي، وكثيراً ما كنتُ أساعد «طوفان». كنتُ في الثانويّة، وأمضيتُ عامين قبل اجتياز الباكالوريا، كنتُ مختلفة عن الجميع، لم أتعرّف إلى أصدقاء إلى درجة الصداقة، اكتفيتُ برتبة الزملاء في تعاملي مع الجميع، ليسَ لأنّهم لم يُحاوِلوا التقرّب منّي بل لأنّي أنا من فقدتُ ثِقتي بالنّاس.

كنتُ أجلس في آخر الصفّ، لكن رغم ذلك عمِلتُ ما بوسعي للنجاح، لم أكن أتقن الفرنسيّة بقدر إتقاني العربيّة، لكنّي حاولتُ جاهدةً التأقلم مع ظروف الدراسة، فكثيراً ما كنتُ بعد انتهاء الحصّة أسأل المدرّسين لعلّي استدرك ما أجهله، وقد حنّت عليّ إحدى المدرّسات وذاك من حظّي. برغم سكوتي الشبه دائم، ومُكوثي في قوقعة صمتي، تفوّقتُ في الكتابة، تسألني بعض الزميلات عن السبب، فأبادلهن بالصّمت، وذاك ما جعل جُلّهُنّ ينفرن منِّي، عشتُ أيّامي كذلك، دراستي وكتاباتي أهمّ شيء بالنسبة إليّ، كانت علاقتي بوالدتي لا تتعدّى بضع جُملٍ كلّ يوم، من «صباح الخيرِ» إلى «طاب مساؤكم» حين أتملّصُ منهم وأجرّ أحلامي الذّابلة إلى غرفتي التي لم أهتمّ بها البتّة، فقد نُقل الأثاث كلّه من الغرفة السّابقة إلى هنا، وكلّ ما تغيّر هو الأرضيّة التي لم تكن كسابِقتِها «رقعةَ شطرنج»، ما زال السرير الضخم ذاته ووسائده، التي لم أجد بعد ذلك معنى لها، ومكتبي الذي لم ألمحه يوماً إلاّ وهو مغطّى بأكوام الكتب التي أستلفها أحياناً من مكتبة الثانويّة أو التي أقتنيها.

سيّرتُ كلّ اهتمامي صوب دراستي، فحظّي لم يُحالفني في غيرِ ذلك، كان «طوفان» عند استِصعابِه لأيّ شيء يسألني، أو أحياناً يسرِق كرّاسي الذي أكتب عليه، أتأكدّ من ذلك عندَ بحثي عنه ولا أجده لِيَظهر بعدها فجأة في مكانه بعد أن ألمح طيف «طوفان» مرّ بغرفتي، أدرِكُ أنّها ليست أمّي التي وراء اختفاء كرّاسي، فهِي لم تعد تهتّم البتّة، أحسستُ كثيراً أنّها لا تريدني بينهم، لذلك علمتُ أنّ أمري لا

يهُمّها، خِلال العامينِ لم تتوقّف «شهرزاد» عن السؤال عنّا وبين الفيْنة والأخرى تزورنا ودائماً ما تُهديني كِتاباً جديداً، أمّا «عزيز» فقد صار لا يحتمِل وجودي لأنّي الوحيدة المُتمرّدة على أوامِره وقراراتِه. استقّرت حياتي على هذا الحال برغم كلّ شيء حتى حين...

أتممتُ الثامنة عشرة من عمري، وكانت آخر أيّام الامتحانات، جاءت «شهرزاد» في ليلة شِتاء، كِدتُ أتجَمّد برداً وأنا مُنكبَّةٌ على مُراجعةِ دروسي حين أطلّ «طوفان» وأخبرني بقدومها، أسرعتُ لأقابلها، لم تكُن على عادتها ولم أدرك وقتها ما خطبُها، مكثَت ليلتين ولانشغالي بدراستي لم أمضِ وقتاً كافياً معها، يوم الجمعة صباحاً حينما همَّت بالرحيل أتت إلى غرفتي:

– كيفَ حالكِ عزيزتي؟ اعذريني لأني لم أمكث طويلاً هذه المرّة ولم نتحدّث كثيراً كالعادة.

– لا بأس «شهرزاد»، أنا من يجب عليّ الاعتذار لأنّي أهملتُ ضيفتي، تعلمين... مع الدراسة والامتحانات.

– أعلم جيّداً وأعلم أنّه عليكِ المثابرة... تعلمين؟ (وتغيّرت نبرة صوتها) لقد تركتُ أمّ «محمّد» مريضة، وأعلم أنّي لن أصل قبل الغد مع هذا الجوّ.

– ما بِها أمّ «محمّد»؟

– وهل أدري أنا! هيَ لا تُريد الذهاب إلى الطبيب و«محمّد» دائم الخِصام معي، يقول أنّي أزعجها بهذا الموضوع.

ثمّ صمتت، اقتربت منّي وحضنتني، وقالت:

– أظنّ أنّي لن أستطيع المجيء إلى هنا بعد الآن، أتمنّى أن تكوني بخيرٍ من أجلي، اعتني بنفسِك عزيزتي، وراسِليني متى استطعتِ... أو أقول لكِ؟ اشتري هاتِفاً

فذلك سيكون أفضل!

– تعلمين أنّي لا أحصل على مبلغ كافٍ فقليلاً ما أحصل على ما يفوق احتياجي من النقود وأصرفه في شراء الكتب... لا بأس سأتّصل بكِ كما تعوّدت من هاتِف البيت حين أكون بمفردي، لا عليكِ.

– لا...

فتحت حقيبتها وأعطتني نقوداً، قبِلتُها بصمت، وكانت تلك آخر مرّة أرى فيها «شهرزاد» في قسنطينة.

تُوفيّت والدة «محمّد» بعد ذلك بأسبوع، ولم أذهب أنا وأخي للعزاء الذي دام أسبوعاً كامِلاً... استطعتُ خلال ذلك التأقلُم مع العطلة والمكوث بالبيت، نسيتُ أمر شراء الهاتف تماماً، فقد كان ما شغلني الأرقام التي غَدَت تتصّل على هاتف البيت كل يوم، في أوّل مرّة لم أرد، لكنّ الإلحاح جعلني فضوليّة:

– ألو من معي؟

– ...

وأُغلِق الخط، هُناك لم أعد أفهم، فَلِمَ الإلحاح ثم حين أُجيب لا شيء... نسيتُ الأمر بعدها حتى الغد، حين اتصل رقمٌ آخر، كُنتُ منشغلةً في المطبخ، وما كِدتُ أصل حتى ردّ «طوفان»، سمعتُ صوتاً أنثوياً يجيبه، اختطفتُ الهاتف وتحدّثت فصمت الصّوت مجدداً. تعوّدتُ حين أغضب أن أتحدّث بالتركيّة، ولا أعلم تماماً ما قُلتُه حينها، لكنّي أذكر جيّداً ضحكة الاستهزاء على الطرف الآخر:

– أنتِ إذن الفتاة الخادمة التي أتى بها من تركيا... مرّري الهاتف إلى سيّدك!

– آسفةٌ لتخييبِ ظنّك، فلستُ خادِمة أحد.

– أليسَ بيتَ «عزيز»؟

– بلى، وهو زوج والدتي.

– مستحيل... خادمة وكاذبة؟! حين يعود سيّدك أخبريه أنّ الشاحنة القادمة من المغرب قد تمّ إيقافها، وسأخبره بتصرّفاتِك وأقوالِك ليُؤدّبكِ.

أغلقت الخط وتركتني خلف جنوني، إذا كان «عزيز» زوجُ أمّي فمن هذه، وما حكاية الخادمة التركيّة؟ وأيّ شاحنةٍ هذه؟ وتجارته لم تكن مع دولة المغرب!

كان «طوفان» يسأل من هذه، ولم أخبره. تكررت الاتصالات من يومها لكنّي لم أرد لأنّي رأيتُ أنّها تستهزئ بي، يومَ عودةِ «عزيز» وأمّي لم أسمع رنين الهاتف، وحاولتُ أن أنسى الأمر، بيْدَ أنّ «عزيز» لم يترك لي المجال، ففي مساء اليوم التّالي عقِب عودته، كنتُ منهمِكة أنظّف الصّحون حين فاجأني باقترابه ليُحدّثني، خِفتُ منه ومن نبرة صوته الحادّة التي تحدّاني بها:

– إيّاكِ ثمّ إيّاكِ أن تُخبري أمّك بما حدث!

– ما الذي حدث؟ لا أفهمك.

لم أنتبه إلاّ على صفعةٍ منه على خدّي، أنا التي عِشتُ عزيزةً منذ صغري، أَيُذِلُّني نذلٌ كهذا؟

– لا تسْتَغْبي، مُحادثتُك في الهاتف في غيابي... من سمح لكِ أساساً بالرّد، وكيف تُنكرين أنّك خادِمة، من قال أنّك أفضل من ذلك؟ أَوَ أقولُ لكِ، حتى وإن أخبرتِ «فيروز» فلن تُصدّقكِ، ولن تستفيدي شيئاً، بل حينها ستقبل اقتراحي الدّائم بأن أمنع عنكِ كلّ ما أنتِ فيه من نعيم... لا تنسيْ أنّ كلّ ما أنتِ فيه مِلكِي أنا!!!

بِئْسَ الرّزق الذي سيُذِلُّني أكثر، ويُبعدني أكثر ممّا أنا بعيدة عن أمّي، لا

والأكيد أنّه لو كان الأمر عادِياً لما ألحّ ولما هددني بتاتاً، قررتُ يومها الرّحيل، ثم عزفتُ عن ذلك بسبب دراستي، ولا أنسى أخي... كان لا يزالُ أمامي اجتياز امتحان شهادة الباكالوريا، حاولتُ نسيانَ كلّ شيء، فزاد بُعدي عنهم وقتها، حتّى «طوفان» كان يلومني على قلّة اهتمامي به ثمّ فجأة، توقف عن اللّوم.

ذاك الصيف، حين كُنتُ انتظر النتائج، انتبهتُ أنّ «طوفان» لم يعد يدخُل غرفتي ليقرأ كتاباتي، حاولتُ أن أُرجِعَ ذلك إلى أنّه قد كبر أو أنّ كتاباتي ما عادت تستهويه، لكنّي انتبهتُ أنّه مع كلّ إشراقة شمس يومٍ جديد يبتعد أكثر بمقدار شبر.

يومَ حصلتُ على شهادة الباكالوريا من المفترض أن أفرح، أن يفرح لي أخي، أو حتّى والدتي، لكنّي عُدتُ إلى البيت وحيدةً أجرّ خيبتي المُغلّفة بغلاف الفرح بالنجاح، ولم يسألني أحدٌ حتى...

كنتُ أحاول التسجيل بالجامعة من جهاز الكمبيوتر الخاص بي، حين دوّى باب غرفتي، أدركُ أنّي لم أفعل شيئاً، تفاجأتُ بأمّي تدخُل غرفتي تبحث بسرعة، كان «عزيز» يبتسم بمكرٍ وهو يُطِلّ من الباب...

– عن ماذا تبحثين annem (أمّي)؟

لم تُجِبني، بل تصرّفها من فعل ذلك، حين أخذت كراريس كتاباتي ونظرت إليّ قائلةً:

– أهذا ما تتباهينَ به أمام النّاس؟ كتاباتكِ عن التعاسة والحزن والخرافات؟ ما الذي قصّر به في حقّك هذا المسكين؟ لماذا تُصرّين على إذلاله أمام النّاس؟ أَلِهذا الحدّ توصّلت بك أن تشتكيه للشرطة؟

أكاد لا أهضم ما هي تقوله، أدرك أنّي لم أفعل أيّ شيء، أدرك أنّ كتاباتي لا يراها أحد، حتى أستاذتي التي كانت تقرؤها لتصحيحها لم أعد أراها منذ قرابة السنة!

وأيّ شرطة هذه التي سأشكو لها؟

– annem ماذا تقولين؟ لا أفهمُكِ حقاً.

– لأنّكِ غبيّة. (قالها «عزيز»).

هناك صرتُ أحدّثها بالتركيّة كي لا يتدخّل فيما لا يخصّه.

– أمّي لا تنخدعي بما يُقال لكِ، حتى اقرئي كتاباتي، أنا لم أكتب أبداً عن هذا الحقير الذي تجهلين الكثير عنه...

– مُريها تتكلّم العربيّة يا «فيروز»...

– أمّي، لا شأن له بي، ولا شأن له بكتاباتي، ولا بأفكاري ما دُمتُ لم أمسّه ولم أقصِده، وعن قصّة شَكواي للشرطة فقسماً لا أعرف عمّا تتحدّثين، والله إنّكِ قد خُدِعتِ يا أمّي! اسمعيني...

– «فيروز» فلتأمُريها أن تتكلّم بالعربيّة (كان يعيدها ولم أكترث له).

– annem، كيف صرتِ تُصدّقينه هو وتكذّبيني؟ وهل في عاداتنا التدخّل في ما يكتُبه الشخص؟ هل نسيتِ أنّكِ لا تنتمين لهم؟ كيفَ غيّروا فِكركِ أمّي... اسمعيني أرجوكِ...

لم تسمعني لا يومها ولا بعدها، ولا حتى قبلها، كان صَمتُها عنّي سرمَدِيًّا...

أُحرِقت كتاباتي عشيّتها، بعد أن تمّ التخلّص منها مع النفايات تحت العمارة، وقد تكفّل «عزيز» بإضرام النار فيها، وهو يُدرك رؤيتي للمشهد، وينظر صوبَ نافذتي نظرة تحدٍّ وانتصار شنيع، كنتُ أراقب ألسنة اللهب بقلبٍ مُنكسِر وروحٍ مُنفطِرة...

* * *

«يومٌ آخر من أيّام شهر يوليو (جويلية)، ستة عشر عاماً بعد الألفين. عامانِ من عُمر العزاء، في قلبِ تلكَ الشقراء، فجر إسطنبول بصدى أمواج البحر له طعمٌ خاص. الحنين... ألاَ كمْ هو صعب، يُفتّتُ القلوب».

في ذاك الصباح الحادي والعشرين، أعود إلى الكتابة، لا أذكر هل نِمتُ أم لا؟ أظنّ أنّ نومِي كلّه كَرَى لا غير، لكنّي استيقظت كالعادة كي أُعيد تماماً ما تعوّدتُ عليه خُطوةً خُطوة، تذكّرت وجود «طوفان»... رشفات الشاي لا تزيدني إلاّ آلاماً، تتذابل أحلامي كأنّها أوهام، وتمضي اللحظات كما مضت قبلها الانكسارات...

بعد يومين سأتمّ ربيعي الثاني والعشرين، أفضل تسمية له لن تكون إلاّ الخريف، فليَكن خريفي الثاني والعشرين، تتطاير خصلات شعري مع النّسائم، تتراقص ذرّات الرطوبة العالية في هذا الصّباح، استفقت باكراً على ما تعوّدته، فـ. «أورهان» لم يفتح بعد المطعم، ولا عُمّال متجر «كوش» (Koç) أتوا بعد، لم أنتبه – على غير عادتي – إلى زهور «نيهان» ولم أعقد أحلام اليومِ على صوتِ العصافير، حتّى أنّي نسيت أنّ صخَبَهم يُزعجُني، فقد كنتُ مشتاقة إلى أقلامي والجريد... فرحَلتُ معها بتفاصيل أربعة أعوامٍ وشتاءٍ دخل أبوابي دون تأخير، ما إن حلّ حتى ضاعت بعده البسمات، أدُقّ بأنامِلي بين الفكرة والأخرى أنغاماً على إيقاع الأشواق، تُلوّنُ صدى الحزن بِضعُ ألوان، وتنعيها في بِضعِ أموات... أتذكّر خطوط الألم في خدّي الأيسر في بضع سنتمترات الماضي، والمُستَيقْظ بكلّ حاضرٍ أمامي...

على شفتيّ دروبُ قصائد، لن يغفِر الزّمن استرسالها، أتذكّر كوب الشاي الذي وضعته أمامي، هو الوفيّ الوحيد لي، أشرُدُ به في بضعِ لحظات، أُطيل النّظر إلى

إحدى الفقاعات، ويضيع قليل الكلمات وأنا أُناشد سيِّدي النسيان أن يمحو الألم...

أبحرُ مع الكلمات، أُغازِلُ جثث الضحكات، وأكتفي بمرارة ابتسامةٍ أرسُمها مُثقلةً حين أتذكّر أنّ هناك من يُشاركني هذا الجوّ في هذا الصباح من صباحيّات إسطنبول... تساءلتُ وشرِدتُ مع السؤال:

«هل للغرق أن يكون يوماً سبيلاً للنّجاة؟».

غَدَت بعدها كلماتي كلّها إيقاعات للعزاء، لم انتبه إلاّ حين علَت ضجّة العصافير، كانت الدقائق قد جرّت ساعاتٍ من وِحدتي على شُرفتي، أكتُب... هناك فقط أيقَنتُ شوقي للكتابة، وعلِمتُ أنّي كنتُ أحرم نفسي حَقَّها... شكرتُ لنفسي جُرعة الأكسجين التي تجرّعتُها أخيراً. حمِلتُ أوراق ذاك الصبّاح التي أتمّت ثلاثاً وعشرين صفحة، وكوب الشاي الفارغ من غير الأحزان، دخلتُ غرفتي التي لم أتوقّع أن أنتبه أنّها فعلاً تحتاج إلى ترتيب... كأنّ الكتابة تِرياقٌ أعاد لي نبضاً نسيتُه منذُ شهور...

– مجنونة... ألمْ تستيقِظي بعد؟

ذاك الصّوت الذي تبع وقع دقّات على باب غرفتي، حينها تذكّرتُ أنّي لم أحضّر الفطور لِـ «طوفان»، ولم أوقِظه حتى، انتبهتُ إلى الساعة القديمة على الرّف قريباً من مكتبي، وانتبهتُ أنّها توقفت، ولا أعلم متى كان ذلك – فمنذ مدّة طويلة لم أعد اهتم بمعرفة الوقت – فكّرتُ بإصلاحها، لكنّي لم أفعل...

– لستُ نائمةً يا «طوفان»، (قلتُ وأنا أفتح باب الغرفة)... نسيتُ أن أوقِظك، لم أكن أعلم أنّك تستيقِظ باكِراً.

– أتَمزحين؟ إنّها الحادية عشرة والنّصف!

– حقًّا؟!

– أليسَت لديكِ ساعة؟

– لقد تعطّلت، آسفة، سأحضّر لك الفطور.

– لا تُزعِجي نفسكِ، فنجان قهوةٍ يكفيني.

– مُتأكِّد؟

– وما فائدة المُزاح؟

فضّلتُ القهوة التركيّة على أيّ شيء، رغم أنّي أدركُ أنّ أمّي لم تُجرّبها يوماً في الجزائر، ورغم أنّي متأكدةٌ أنّ «طوفان» لم يتذوّقها في صِغره، لحق بي إلى المطبخ وصار يُعلّق:

– لم أقل لك حضّريها هكذا، كلّ ما في الأمر قليلٌ من النسكافيه والماء ولِمَ كلّ هذا الوقتِ الضّائع؟

– حسناً...

نظرتُ إليه ثمّ أضفتُ أتحدّى كلماته:

– هذه هي القهوة التّي ستشربها من اليومِ فصاعِداً، على طريقتي أنا، ولتنسَ النسكافيه.

صَمت، وأعلمُ أنّ صمتَهُ ليس عن رِضا، إنّما عمِلتُ على ذلك ففي هذا البيت قراري أنا هو الذي يجب أن يمضي في طريقه، أَوَليست أمّي قد اختارت ما أرادت لحياتها وهدّمت معها ستّ سنوات من عمري؟ أظنّ أنّ ذلك يكفيها حتى الآن، كما سئمتُ اتّباعها منذ عامين، سئِمتُ تتبُّع أوامرها وأهدافها هي للحياة، ففي كلّ الأحوال أنا الوحيدة التي تمنّت تصحيح بعض أخطائي، رغم عِلمي أنّه ما مِن سبيل لتصحيح هفواتِ ستّ سنواتٍ اقتَرَفَتها هي أو كانت السبب في أن نقترِفها.

كان الحزن حينها قد التهم فُؤادي نتيجة التفكير فقط... نظرتُ إلى «طوفان» الذي لتح قهوته كما لوْ أنّها لم تُعجِبه ولن تُعجِبه، لكنّي ابتسمتُ لأنّ مُحاولاتي تبدأ من هنا، ولن تكون فاشلةً كمُحاولاتي لخلقِ الأمل في حياتي...

* * *

كان الجوّ يومها غائماً، يُنْبِئ بعاصفةٍ تقترب، استسلَمت الأرض خاضِعةً لتَغيُّر الجوّ المُفاجئ، كما استسلمتُ أنا للحياة وخضعتُ لها رغم كلّ ما آلمني من تفاصيل.

أوّل يومٍ لي بالجامعة، جاهلةً وسط كلّ ما حولي، رغم اختياري فرع العلوم البيولوجيّة إلاّ أنّي وجدتُ نفسي تائهة بعدها، كنتُ أنظر لوجوه النّاس من حولي، بعضُهم أحسستُهم مثلي لا يفقهون شيئاً هنا، ذاك ما كان عزاء لقلبي، خرجتُ بعد يومٍ طويلٍ من باب الجامِعة المركزيّ لأنّي كنتُ مُتأخّرةً عن النقل الجامعيّ وقد فاتني، انتظرتُ مرور أيّ حافلة تُقلّني في طريقها إلى «سيدي مبروك» وسأجد منه الطريق إلى البيت، فقد اعتدتُ المرور من هناك أراقِب ذاك البيت الذي سكنّاه ذات مرّة، والذّي هُدّم وشُيِّد مكانه بناء جديد... كنتُ انتظر بخيالٍ غائب، مُحتميّةً بمظلتي من المطر الذي تتسارع ذراته لتصطدم بالأرض، بوجهٍ شاحب وأنامل أرهقها التعب، حتى لمحتُ «عزيز» في سيّارته...

– لا يا أمّي لستُ مُخطئة.

– إذاً أنتِ تكذبين.

لم أشأ خسارة الجولة مرّة أخرى، أو تضييع الشوط والفرصة التي أتتني تحبو على أربع. فضّلتُ الصّمت بعدها. حين أخبرتُ أمّي أنّي رأيتُ «عزيز» مع فتاة لم

تُصدّقني، كما أخبرتُها من قبل مرّاتٍ عديدة ولم تصدق.

يومها فقط عزمتُ أن أربح هذه الجولة رغم أيّ شيء، فقد مللتُ أن يتهمّني بأتفه الأشياء التي يُلصقها بي، ومللتُ كوْنَ أمّي تصدقه، فلا عتبَ عليّ إن أردتُ الثأر.

اتصلتُ ليلتها بِـ «شهرزاد»، كنتُ أبكي، كما السماء كانت تبكي إيذاناً بحلول الخريف، الذي لم يكن فقط فصلاً بل كان تفصيلاً أعيشه. «شهرزاد» فضّلت سماعي ليلتها عن الحديث، أخبرتُها كلّ شيء، عن كِتاباتي التي رُمِيت ظُلماً بسبب «عزيز»، وعن استدعائه في مقر الشرطة وزعمِه كذباً أنّي السبب وراء ذلك، وعن الاتصالات التي كانت ترد إلى البيت في غيابه والتي لم تتوقف، وبرغمِ ذلك عُمِيَت أمّي عنها، أحتار كيف لا يُخالجها الشك في أيّ من الأمور التي حدثت، أذكر أنّي كثيراً ما قرأت أنّ للنساء إحساساً بالغاً، يجعلهن يتكهَنّ حدوث الأشياء، لكن كيف لي أن أعرف ما يدور في بال والدتي وقد شيّدنا جداراً من جليد بيننا، لم نُحاول أبداً كسره أو إذابته، كنّا ننظر إليه بافتِخار رغم كل ما فيه...

في الغد عاودت الاتصال بي «شهرزاد» وأنا في المحاضرة، اعتذرتُ وخرجت لأحدّثها، ومن يومها لم تعد دراستي تهمّني بتاتاً، صار دورها هي لتحكي لي عن ذاك الصبيّ الكبير الذي لم يشأ أن يكبر:

– برغم أنّه أخي، إلاّ أنّي ابتعدتُ عنه عن سبق إصرارٍ وترصّد، وأدرك أنّي على صواب فيما فعلتُ... أحاول قدر الإمكان إبعاده هو ونزواته وجنون مراهقته المُتأخرة وكل دهاليز أخطائه عن حياتي، حتى أنّي لن أُخفيكِ اليوم حديثاً، حين قرّر الزواج بِـ «فيروز» منعتُه، فما ذنب امرأة أن تتحمّل مصائبه، ثم فكّرتُ أنّها ربّما ستكون مِرساته الأخيرة. كان لديّ أمل أنّها ستتمكّن من إصلاحه، لكن على ما يبدو ساء ظنّي، فهذا أخي وأنا الأحقّ بمعرفته، كان الأجدر بي أن أكلّم أنا والدتك وأمنعها

من دخول بُحيرتِه الرّاكدة مِياهها تلك، أن أُحذّرها من مغامرةٍ أنا الوحيدة العارفة نهايتها، لكنّي سكتتّ... وسكوتي كان من نار، وآسفة فعلاً آسفة بقدر بُعدِ المشرق عن المغرب، لأنّي كنتُ شيطاناً أخرس.

أردتُ الرّد، لكنّي لم أستطع النّطق بحرف، فتابعت بين دموعها وصوتِها المبحوح المقرون برعشةِ بكاء:

– ظننتُ أنّه سيتغيّر، فقد كبِر وصار في أواخِر محطّات الأربعينات، لكنّه لم يتغيّر إلاّ للأسوأ... لقد عاش بجنون منذ وفاة والديّ، كُنت أنا الوحيدة معه، وإن كان وجود والديّ رادِعاً له فغِيابُهما جعله يُحوّل البيت الذي كنّا نسكنه إلى حانةٍ في الليل ومتجر مخدّراتٍ في النهار. حاولتُ كثيراً منعه، ساعدتُه في تدبير عمله، ليس لشيء، فقط كي يُبعِد عقله عن الجنون الذي غرق فيه... اشتهر في كلّ الحيّ أنّه بارون مخدّرات، وكم ساء حالي أنا التي لم أجد ما يحفظ لي ولاسمي ماء الوجه بعد كلّ ما يفعله أخي... حذّرتُه طويلاً وظننتُ ذات يومٍ أنّي تمكّنتُ ممّا أريد، بعد أن انتقلنا من حيّنا القديم، لكنّي تفاجأتُ حين عاد يومها إلى البيت ثملاً كما كان تعوّد سابِقاً، كأنّ جهودي باتت سراباً، يومها بالذات قررّتُ هجره إلى الأبد، فلا أمل فيه، وإن بقيت معه فلا خاسِر سواي، لكنّي لم أستطع...

تزوّجتُ بعدها، وابتعدت عنه، تركتُه لَرُبّما يملّ ممّا هو فيه. عندما أخبرني عن نيّة زواجه فرِحتُ، ثمّ خفت، حاولتُ منعه لكنّه أصرَّ، فظننتُ أنّه أخيراً قد هُدِيَ سبيل الرّشاد... لكنّي حين كنتُ أزوركم كنتُ أتأكدّ أنّه لم يتغيّر، حتى أنّي لا أفهم كيف لم تحسّ والدتكِ بأي شيء مريبٍ فيه، علِمتُ بعدها ما لا يُحمدُ معرِفتُه عنه، لذلك أتيتُ لتوديعكم، كنتُ قد خاصمتُه وقررّت من يومها أن لا أزوره مطلقاً... تمنّيتُ لو كانت لي الشجاعة لأكلّم والدتك، لكن حين رأيتُها لم أستطِع... أحسستُ ذات مرّة أنّها تعلم كلّ شيء وتتستّرُ عليه، والمُحيّر ما الذي يُجبِرها على ذلك...

– لِمَ لم تُحاوِلي فربّما كانت صدّقتكِ؟

– ربّما ذلك ذنبي أو ليس ذنبي، فنظرتُها لي اختصرت كلّ شيء حين سألتُها عن سبب بقائها معه.

– ما زلت حتى أنا عاجزة عن فهم السبب...

صمتنا نفكر، ثم سألتها:

– والحلّ؟

– حاولي أنتِ إيجاد الحلّ... أمّا عن حكاية استدعائه من طرف الشرطة، فليتني استطعتُ منع «محمّد» من إخراجه يومها بكفالة، كان قد اتّصل بي، وأغلقتُ السبيل في وجهه، لكنّ «محمّد» ظنّ أنّه سيتعلّم من هذه المرّة ويعود إلى رشده...

– إذن كنتِ تعلمين السبب في استدعائه؟

– لم يتم استدعاؤه، بل تمّ جرّه إلى مركز الشرطة، كان المُتّهم الوحيد في قضية قتل، لكن ما ساعده في الخروج كونَ لا شيء يُؤكّد إدانته بالقضيّة... لا بدّ أنّها قصّة نقود أو مخدّرات، وما عساها ستكون... أعلم يا عزيزتي أنّك الوحيدة التي ستستطيعين إيجاد الحل، فلستِ جبانةً مثلي...

– لن أستطيع فعل شيء.

– إن لم تستطيعي تكوني قد حاولتِ على الأقل...

خيّم الصّمت حينها، من يومها صرت أرصد أيّ خطأ له، كنت أعود إلى البيت مساءً فلا أجد غير «طوفان» الذي أحسّه ابتعد عنّي فعلاً حينها ولا أعلم السبب الذي خلق كلّ ذلك الفراغ بيني وبينه. أحسستُ أنّ لِـ «عزيز» يداً في الأمر، ربّما لِعلمِه أنّي أعلم عنه الكثير ممّا يجهلونه، انتبهتُ أنّه يرصدني أكثر ممّا كنتُ

أرصُده، وصار يمكر بي ولا أستطيع ردّ الصّاع، لا صاعاً ولا صاعين، كان كَمَنْ يُملي الأوامر على أمّي، يختَلق المشاكل ويُلصقها بي، حتى الصيف الرابع عشر بعد الألفين، كنتُ حينها مع دراستي كمن يُجاهد بِيديه بدل السّيف والبندقيّة، مُجرّدةً من كلّ الأسلحة، حتى أنّي نجحتُ بمعجِزة صِفرٍ خلف العشرة!

حينها، كانت كلّ شموع التفاؤل قد انطفأت، مع كلّ ما صِرتُ أراه، مع تهديدات «عزيز» لي كلّما حدث ورأيتُه مع فتاة جديدة، حين أدرَكَ أنّه لا يُخيفُني وأنّي أصمُت بمحضِ إرادتي وقت ما أشاء صار يرشوني، كلّما عاد ثمِلاً بعد أن يتأكّد أنّي لمحته مع إحداهُنّ يفتح باب غرفتي، يرمي لي حزمة نقودٍ جديدة ويُتمتِم جملته بابتسامةٍ ثَمِلةٍ ساخرة، الجملة التي أمقُتُها:

– تابِعي صمتَكِ يا خادِمتي الحقيرة.

لا أستدير لأراه حتّى، وآخذ حزمة الأوراق النقديّة الخضراء تلك وأُتبِعُها برفيقاتها في خزانتي، فقد حدث ورميتُها على وجهه وانهال عليّ ضرباً... يظنُّ أنّ المال سيشتري له خادِمةً – على حدّ تعبيره – بكماء صمّاء عمياء عن أخطائِه، كنتُ أحياناً أخبر أمّي، لكن لا حياة لمن كنتُ أنادي. عِشتُ فعلاً أسوأ أيام حياتي حينها، حتى اليوم الثالث من شهر أغسطس (أوت) صبيحة ذاك الأحد حين أتت أمّي لترميني بتلك الكلمات الجافة التي آخر ما تتوقعّه أن يكون نابعاً من فِيهِ أم:

– اسمعي، أنا لن أتحمّل المزيد من الهراء في هذا البيت، أسعى جاهِدةً كي تعيشوا بهناء، وأنتِ الباحثة الوحيدة دوماً عن المشاكل تحت هذا السّقف. وقد مللتُ منكِ، وأنت ترمين اليد الوحيدة التي تُعينكِ بتفاهات واتهاماتٍ باطلة رغم كلّ ما يفعله من أجلك...

– ليسَت باطِلةً ولستُ بحاجة....

– أصمتي، لم آذن لكِ بالكلام... أما يكفيكِ أنّه تحمّلك رغم أنّكِ يتيمة...

أخذت تتابع ولم أسمعها، كان عقلي قد توقّف عند جملتها تلك، أهذه فعلاً أمّي، والدتي التي كانت حين أقول أنّي يتيمة تنهرني وتقول ما دامت هي معنا فلا مكان لهذه الكلمة؟ أهذه أمّي التي عشنا أروع أيّامنا معاً، أهذه هي التي كانت في طفولتي نبع حنانٍ لي ولأخي؟ أشكّ أنّها هي، أو أنّها مسحورة، لا بدّ أنّي أعيش كابوساً دام سنوات ولا بدّ أن أستيقظ...

وفعلاً، استيقظتُ على قولِها:

– لا مكان لكِ بيننا منذ اليوم!... أنتِ كبيرةٌ بما يكفي وأنا لا أريد المزيد من المشاكل في البيت، كان كلّ ما يجعله صابِراً عليكِ كونك يتيمة، لكنّك قد تماديتِ.

جرّت الباب خلفها ليُدوّي مع أنيني، لن ينفع اليوم شيء معها ولن ينفع أبداً، لم يكن «طوفان» في البيت، فقد بحثتُ عنه، بحثتُ عمّن أشكو له كلّ ما حدث وكل ما يحدث، بحثتُ عن حضنٍ أبكي فيه كلّ هذه الآلام، لكنّي احتضنتُ نفسي وحملتُها بنفسي ووقفتُ دون انكسار، كلّما أرهقني البكاء أمسكتُ قلادة الصول. لو كان والدي هنا، لما كنتُ رأيتُ كلّ هذا الهراء.

مسحت دموعي بسرعة ولملمت لآلِئي التي لو جمعتُها لكانت بحراً آخر يُضاهي «المتوسط»، أسرعتُ لحاسوبي، سأفعل ما كان يجب فعله من زمن، حجزت على أوّل طائرة إلى مطار إسطنبول، كانت أقرب رحلة في ليلة الغد لكن من مطار «هواري بومدين» في العاصمة، لم آبه، لحسن حظي أنّي وجدتُ حجزاً وأظنّ أنّي كنت آخر من حجز مقعداً على تلك الرحلة، لم أكترث لحمل أغراضي معي، فقط حقيبتي، فلم يعد هناك مكانٌ لأحجزه للذكريات، دخلتُ غرفة أمّي على غفلةٍ منها، أين كنتُ أعلم تماماً مكان مفاتيح بيتنا بشارع «تركغوجو» (Türkgücü). ذاك البيت الوحيد الذي عَرِفَت فيه السعادةُ طريقها لي، لن يخذلني أبداً.

حملتُ حقيبتي، لم أنوِ أبداً أخذ مال «عزيز» الذي كان يرشوني به، أطلت التحديق إليه وهو بين أناملي، فكرت بتركه لكن ليس لديّ غيره، سأصرّفه فيما بعد حين أبلغ تركيا، لا يهم، المهم الآن أنّي أخذته من خزانتي، خرجت من البيت وتركت كلّ شيء على حاله، كأنّما أتى إعصار أخذني وحدي أنا...

أردتُ الخروج من هناك تماماً كما أتيتُ أوّل مرة، آثرتُ الابتعاد وسماع الأمر الذي فصلت فيه والدتي، ولا أحسن من العودة إلى مسقط رأسي، فلا مكان لي هنا ولا نفع في البقاء بعد هذه الآلام التي تكدّست خيبةً أذرفها.

أحسّ بالإحباط، لم أدرك يوماً أنّي سأنال كلّ هذه التعاسة، أو أن أصل إلى هذا الإحساس بالخيبة، بتّ أتساءل: أهذا صوتُ دمار أم انكسار أمْ أنّي أتذوّق مرارة الخيبة أم الحماقة أم ندم تعليق الآمال...

تنهّدت بكلّ طاقتي التي خرّت بعد كل هذا، ركبتُ سيّارة الأجرة لتُقلّني إلى محطّة المسافرين لأركب حافلةً إلى العاصمة، أدرتُ وجهي صوب زجاج السيّارة، فلمحتُ بضع شوارع من قسنطينة، لم يطلني العذاب منها هي بحدّ ذاتها، بل ممّن كان فيها. كنت أريد الهروب من الألم فوجدته يختبئ في ثنايا أكمامي حين مسحتُ بها دموعي التي كنتُ أذرفها، أغمضتُ عينيّ وتركت الدّموع تخطو أروقةً جديدة، أحسست بهزّة هاتفي، كانت «شهرزاد» التي أرسلتُ لها قبل قليل:

– أينَ أنتِ الآن؟

– في الطريق إلى محطة المسافرين.

– حسناً، عندما تشترين تذكرة أخبريني بموعد إقلاعِك، فسأحاول القدوم إلى محطّة الجزائر.

– لكنّي لا أعرف شيئاً يا «شهرزاد» (ببحّةٍ خنقت صوتي).

وكما دوماً فعلت، ساعدتني في كلّ شيء...

كان موعد الحافلة القادمة بعد ساعتين ونصف، وكان عليّ الانتظار، حملت قلمي الذي تعب من العناء الذي لاقاه، والذي عايش معي كل الهموم، رغم أنّي كنتُ قد توقّفتُ عن الكتابة منذ حادثة إحراق كتاباتي، فلم أكن على استعداد بأن أودّع أبناءً آخرين أَلِدهم من رحم حبري، ولا أجد الآن نفسي إلاّ أكتب. كانت تلك أولى بوادر عودتي إلى الكتابة وما كتبتُه بعدها لا يُعدّ على الأنامل العشر، بدأت بكتابة كلّ ما مضى عليّ وعلى قلبي عسى أن أتحرّر من الحزن أو أن يملّ هو منّي، لم أنتبه إلاّ حين سمعت من أحد المسافرين أنّ الحافلة المُقِلّة للعاصمة ستغادر بعد خمس دقائق، جمعتُ أوراقي على عجل، حملتُ حقيبتي وأسرعتُ بالرّكوب، لا أذكر تفاصيل الرّحلة، فقد كان عقلي بعيداً كلّ البعد عنها، كانت الساعة السابعة، سرحتُ بعيوني أعدّ الزمن، علمتُ أنّ ذاك ما يعني ستّ ساعات من التنقّل بين قسنطينة والعاصمة، لا أعلم إن كان ذلك التوقيت مضبوطاً أم مُرتبطاً بما سنجده في الطريق.

أمضيتُ الليلة أتخبّط بين دموع المنيّة، رثوتُ فيها حالي رثِّيًا، وكما جئتُ هنا اليوم أغادر هذه المدينة، استوقفتُ تفكيري، ماذا لو صبرتُ بعد، لكن أيّ صبر وأيُّ جثّة للصبر سأدفن بعد، فاضت عيناي دموعاً، ألن ينتهي عصر الأحزان هذا؟ ما الذي سيُطفئ نيران قلبي في داخلي لأصبر أكثر. أحاول الاتصال بِـ «شهرزاد» لكنّ هاتفها خارج نطاق التغطيّة، أحسّ أنّ لهيباً يعتصِر قلبي، أحسّ أنّي سأنفجر من كلّ ما مرّ عليّ، أنّي لن أملك ذرّة طاقة أخرى لأكمل الطريق...

غفوتُ قليلاً واستفقتُ على هزّة هاتفي بين يدي حين وصلتني رسالة من «شهرزاد» مفادها أنّها ستكون باستقبالي في العاصمة، أحسستُ حينها بنسمة اطمئنان هبّت بداخلي، مسحتُ دموعي التي كانت على وجنتيّ.

تابعتُ طريقي أفكّر ما فائدة كلّ هذا الذي يعيشه «عزيز» من خداع، فكّرتُ أنّي ربّما تماديتُ في الغوص بين دروب الروايات فصُدِمتُ بأنّ الواقع خلاف كلّ التوقعات، وتناثرت الأفكار والصّراخ يعلو بداخلي، كيف وبأيّ حق يُلحق غريب بي الأذى؟ وكيف لأمّي أن تُمهِّد له الطريق. لم أعتب مطلقاً على «طوفان» ففي نظري لا يزال صغيراً، حتى أنّه كان بعيداً عمّا يحدث، لم أشأ أن تقرُبَه مشاكلنا. كان رغم نظرته التي توحي أنّه يعلم أنّي مظلومة في مُعاملة «عزيز» لي وغطرسته وما يجرُّ أمّي لتُعاملني به من برودةٍ وقسوة، مجرّد صخرةٍ جامدة صامتة، وليس من مصلحته الكلام أصلاً... تعبتُ من شدّة ما ذرفت من العَبَرات حينها، على ضوء ذاك القمر، ليلتها، ارتطمت حياتي كلّها بحائط كلّ المُحاولات التي باءت مُقامرات على ممرّ الأنين، هل كان ما يُخالِجني حينها الخُذلان، أم الحسرة، أم هي مخلّفات شظايا روحٍ بالية، لا بل أعلم أنّها الخيبة...

الآن على حافة الكلمات، بين الدموع والحسرات، جالسة على حافّة ذاك الكرسيّ، وبرد المشاعر يتسلّل إلى روحي، يُحاول تشييعي، أرفع عيني لألمح الطريق، ما زال من عمر الطريق ثلاث ساعات... سأمضيها كما أمضيتُ أربع سنوات، كما أمضيتُ شهوراً كثيرةً من العذاب وفُقداني بشاشة وجهي القديم وكما لطالما أمضيتُ ساعات الانتظار...

* * *

«إنّ الموت يُؤرّقني، يسرق منّي عُذريّة الكلمات، ويأسِرني بين ثنايا الانكسارات، بالاختطاف يُهدّدني، فارتقبه بين الساعات، يشدو ألحانه فيُدميني، وأغدو كوغدٍ بلا بسمات، يتلاعبُ بشظايا ذاكرتي، يختلِسُ الانهزامات، يعبَثُ بالحنين بين

ضلوعي، لأنتفض غُبار عَبَرات، يُدمّر الأمل حيثُ كان بخيالي، لأصرخ وتنتشي التشاؤمات، وعدتُه أنّي للغدرِ سبيلاً أرجو، لكنّه زاد بقلبي تنكيلاً وزادت المعاناة».

يتآكل قلبي بفعل الحزن بسبب عزوفي عن الكتابة لأشهر، طمعتُ اليوم أن أُشفى فكتبت... عن الموت كتبت – ألم يكن هناك موضوع أفضل؟ – تركتُ قلمي وهممتُ بالوقوف فأسقطتُ كوب الشاي الذي كان بمحاذاتي، انتفضتُ بسرعة أحمله أتأكّد من سلامة أنامِله حين أطَلَّ «طوفان» يسأل ماذا حدث:

– لا شيء يا «طوفان»، فقط أوقعتُ كوب الشاي...

– هل أساعِدكِ؟

استدرتُ اتجاهه، كان يرتدي ملابسه كأنّه يهمُّ بالخروج.

– لا بأس سأنظف كلّ شيء، لا عليك...

– كما تشائين.

كان سيمضي حين سألت:

– إلى أين؟

– فكّرتُ أن أخرج في جولة... ما دمتِ أنتِ لم تُقدّمي لي أيّ دعوة لذلك.

اِلتفتُّ أرتّب أوراقي وأنا أعلّق على كلامه:

– لو طلبتَ ذلك، أنا لا أستطيع تخمين أنّك تريد الخروج، أنا حتى لا أعرف ما الذي أتى بك إلى هنا!

– أفهمُ أنّي أزعجتُكِ بمجيئي؟

– لم أقل ذلك، لكن إن كان ذلك ما فهمتهُ أنت فلا يهمّني...

قاطعني صوت هاتفه يرن، انتبهتُ إلى أنّه هاتفٌ فاخر، نقود «عزيز» بالطبع، أو فلنَقل وسخه. عضضتُ على شفتي ومررتُ لأجلب أيّ شيء أمسح به ما انسكب من الشاي، في حين ابتعد هو بسرعة، وحين عُدتُ لم أجده فأدركتُ أنّه قد خرج، انخفضتُ لأمسح الأرضيّة فانسكبت الذكريات في عقلي، حين كنا صِغاراً، حين كنّا نخرج إلى الشرفة كلّ صباح بعد ذهاب والدي للعمل، ونظلّ نراقب الشارع في أيّام عطلتنا، ثمّ أتت على ذاكرتي على حين غرّة حين كان والداي في زيارة لهما لأحد أفراد أهل والدي بمقاطعة «سلطان غازي» (Sultangazi) التي لا أذكر منها أحداً الآن بسبب والدتي، حين كنتُ بعمر السابعة، وكان أخي بعمر الثالثة، كانت أوّل مرّة له يحاول الركض حاملاً كأساً من زجاج، ولم أنتبه له، وحين أوقعه وأحدث جلبةً لا نهاية لها، أذكر بكاءه العالي حينها وإحساسي بالعجز عن فعل أيّ شيء، كنتُ أتأكّد أنّه لم يُصب بأيّ خدوش، لكنّه ظلّ ينوح طيلة ذاك المساء حتى عودة والديّ... أينَ أنا الآن من كلّ ما كان... هنا فقط تذكّرتُ أنّي نسيت مقاطعة سلطان غازي وأهلها تماماً، حاولتُ تذكّر أيّ تفصيل لكن.. لا حياة لمن أُنادي من فُتات ذكريات الماضي، فقد استُبدِلت كل الضحكات ومواقف الفرح بالآلام التي رافقتني بعدها...

انتظرتُ عودة «طوفان» لكنّه لم يعد، هل أكذب؟ بل أصدق القول مع نفسي أنّي قلقتُ عليه، فكيف لو ظلّ الطريق أو حدث له مكروه، لا أذكر أنّه حصل على رقم من هنا، لذلك اتصلتُ على رقمه الجزائريّ، وكان مُغلقًا، أحسستُ – منذ زمن طويلٍ من عدم الإحساس – بالجوع، لكن لا طاقة لي لصنع أيّ شيء، دلفتُ الشرفة بسرعة لأرى إن أمكنني شراء أيّ شيء من المطعم المجاور، الذي لم أدخله حتى اليوم، أسرعتُ بالنّزول، لحظّي الذي عَهِدتُه تعيساً وجدتُ العاملة تهمّ بإغلاق المحلّ...

– آسفة... أرجوكِ، هل أُغلِق المحل؟

– نعم سيّدتي، هل أخدمكِ بشيء؟

– لا بأس...

نظرت إليّ نظرة لم أفهم بالكاد معناها، ثمّ قالت وهي تُعيد فتح باب المطعم:

– إنّ صاحب المحلّ هو الذي يحرص على إغلاقه في تمام الثامنة، ويتسرّب العمّال قبل ذلك بالطّبع، يتحجّج بسكني البعيد وأنّ عليّ الذهاب... تفضّلي سيّدتي.

وأغلقت خلفنا نصف الباب الحديديّ الأخضر اللون.

– إذن سيّدتي، ماذا تطلبين؟

– ما تشائين ففعلاً لا أريد تعطيلكِ أو مضايقتكِ.

ابتسمت ومَضت تُشعِل بعض المصابيح.

– هل لي بسؤال من فضلِك؟

– بالتأكيد سيّدتي.

– اسمكِ «هيفين» أليس كذلك؟

أحسستُ أنّ سؤالي كان ثقيلاً حين رمقتني بنظرة اندهاش:

– بلى...

– علمتُ ذلك فقط كوني أسكُن بالجوار.

– سامحيني سيّدتي لم أركِ يوماً.

ابتسمتُ وتابعتُ مُعلّلة:

– لأنّي لا أحبّذ الخروج.

– إذن كيف علِمتِ اسمي؟

– كلّ صباح أراكِ أوّل القادمين لفتح المطعم وترتيبه، حتى أنّ العمال الآخرين تغيّروا كثيراً لكنّي دوماً أراكِ أنتِ هنا.

– هل أفهم أنّي مُراقبة؟ (بابتسامة استغراب).

– ليس تماماً.

لا أذكر بعدها كم من الوقت مرّ ونحن نحكي، علِمتُ خلالها أنّها من ضواحي إسطنبول، لم أعرف المكان، فهي لم تذكر اسم القرية بل فقط اسم الحيّ، الذي لم أحسّ أنّه كان غريباً عن مسامعي، وأخذني إحساسٌ أنّي أعرفه أكثر من مجرّد المعرفة. أخبرتها ما شئتُ من قصّتي، حين انتقالي إلى الجزائر، ولم تسألني عن سبب عودتي، كانت قليلة فضول، وذاك ما أعجبني فيها، لم ننتبه إلاّ حين رنّ هاتفها وسمعتُها تحدّث رجلاً:

– لا بأس سآتي من فوري، فقط حاول أن تجعلهم ينامون...

اجتاحني الفضول فسألتها بعد أن أغلقت الخط:

– أولادك؟

– Evet...

– جميل، كنتُ أظنّك صغيرة العمر!

ضحِكت وهي تجمع الأواني التي لم تكن سوى كأسين إحداهما شربت فيها النبيذ والأخرى كانت لي ولكني رفضتُ أن أشرب معها، وبعض الصحون التي تناولنا طعامنا فيها...

– لديّ ثلاثة أطفال، صبيّ بعمر الستّ سنوات وفتاتان توأم بعمر الثلاث.

ثمّ أخذت هاتفها وصارت تُريني صورهم، وذات صورة كانت هي مع أولادها ورجل كبير في السن، سألتُها عنه، التمستُ الحيرة من نظرتها لكنّها لم تمنع عنّي معرفة من يكون.

– إنّه عمّي «آلاطاي» إنّه بمثابة والدي فقد ربّاني منذ صغري.

شرِدتُ كثيراً في ما قالته «هيفين»، رغم انتهاء اللقاء بيننا وعودتي إلى البيت، ظللتُ أبحثُ في ثنايا عقلي عن سرّ هذا الإحساس الذّي يدفعني للتفكير في مكان سُكناها وبالذات في عمّها «آلاطاي».

غفوتُ برهة واستفقتُ على كابوس، كُنتُ أرى نفسي أركض في مقبرةٍ مهجورة، سلبت الحشائش اليابسة جلّ مساحتها، أغصان الأشجار منكسرة مرميّة هنا وهناك، أشجارها كانت عارِية، لستُ أدري كيف كانت السماء صافيّة ثمّ فجأة رحلت الشمس خلف الغيوم التي زاد اسوِدادها، توقّفتُ فجأة، أدركُ أنّي لم أكن أبكي هذه المرّة على عكس ما تعوّدتُ عليه، غَدَوتُ فوق قبرٍ جفَّت الزهور فوقه ورُحتُ أنبش ترابه بيديّ، هناك فقط صِرتُ أسمع أنيناً بعيداً، كنتُ أحسّ بالمطر ينهمِر، بالبرد يُفتّتُ أصابعي لكنّي لم أتوقف عن النّبش، نظرتُ إلى يديّ اللتين غطَّاهما الوحل، كنتُ أرى عليهما الدّماء، صرختُ بأعلى صوتي واستفقتُ مُتسارِعةَ نبضات القلب، وجدتُ نفسي أجلس على الأريكة وتذكّرتُ أنّي كنتُ أنتظر «طوفان». رحتُ أتذكر ما كنتُ أفكر فيه منذ أيّام، ما وددتُ كتابته عن قصّتي الطويلة مع النوم، عن سرّ الأرق الذي ينتابُني حتى حلول الفجر، إنّها تلك الرّحلات التي أقطع تذاكرها في كلّ مرّة، حين أنام. لقد باتت عادةً لا غبار عليها، حين يكون الصّداع حليفي الوحيد أمام جيوشٍ من الكوابيس، ربّما لذلك رغم تعبي أتعمّد عدم النوم والهروب منه بأيّ تفكير، فحين يكون الإرهاق سيّدك لن تنتظر دعوةً للثمالة بكؤوس السُبات، لكنّ شخصاً بمثل حالتي وهشاشة ما بقي لي، لا بدّ له من مُغرٍ قوي كي يُقيم كلّ مساء مأدُباتٍ

للأحزان تتراقصُ فيها الساعات حتى يمضي الليل وأسمع أوائل الهمهمات في الشارع المُحاذي، ظننتُ ذلك لأنّي غير معتادة في الصيف على النوم باكِراً، ثمّ أرجعتُ ذلك إلى أنّي تعوّدتُ منذ إقامتي وحدي أن لا أنال سوى بضع سويعات من النّوم – إن لم تكن متفرّقة – لكنّي علمتُ مُؤخراً أنّي بتُّ أخشى النّوم، فإغماضي جفوني سيدعو الدّموع، وإن رحمتني ونمتُ لن أرى غير الكوابيس، صراخٌ برأسي صداه يظل طيلة أيّامٍ حتى يأذن حارس الكوابيس أن أرى آخر، فَيَحُلّ صداه بدل الصّرير الميّت القديم، حين تستيقِظ على صفعة، أو ترى أنّك في حرب، أو أن الموت منفاك الأخير... فلا أمل بعد ذلك... حتى الأحلام لا تريدني في دُنياها.

انتبهتُ للساعة، كانت الرابعة وثماني وعشرين دقيقة، فكّرتُ أين سيكون «طوفان»، عاودتُ الاتصال لكن لا أمل، راحت كلّ الأفكار تتسارع في عقلي، أين عساهُ يكون في هذا الوقت المُتأخّر؟ يكاد الفجر ينبلج، قمتُ وخرجتُ إلى الشرفة، لم أرَ غير الأضواء الخافتة من بعيد، سادت جسدي رعشة خفيفة من النسيم الذي لامس وجنتيّ، سمِعتُ لحن صرصار بعيد، كنتُ أنصِتُ حتى سمعتُ سعال شخصٍ تحت العمارة، حدّقتُ لأرى من هناك، أطلتُ جيّداً...

– يا إلهي!!!

* * *

لا أذكر كيف أمضيتُ ما بقي من وقتٍ في الحافلة، لكني مُتأكدة أنّي كنتُ أسرق النّظر لترقّب دقّات الساعة باستمرار، حين لاحت لافتة «ولاية الجزائر ترحب بكم» ابتسمت، دون شعورٍ فعلت، فلم يكن بجعبتي مكان للفرح أو للحزن، فقط كانت محاولةً أخيرة للبسمة، كنتُ أسير وأنا متأكدة أنّي فعلتُ ما بوسعي، متأكّدة أنّي

حاولت قدر المُستطاع، حاولت أن أتفاءل، أن ابتسم، أن أتمسّك بما بقي لي، حاولتُ أن أترك على الأقل علاقتي بأمّي وأخي، لكن أمّي كانت تهربُ بسبق إصرارٍ وتملّص، وأخي كان يُسلبُ منّي وينساق كمِياهٍ بين يديّ تنساب. أدرِك أنّي أخطأت حين لم أخبر «طوفان» بالأمر، بأنّي على الأقل حاولتُ إيقاظ والدتي ولم أستطع، وها هي انجرفت وجرفته معها... ربما أخطأتُ حين استسلمتُ من الأوّل، أو حين حاولت إقناع نفسي أنّ «عزيز» ربّما يستحقّ أن أثق به، لكنّه كان لا يستحِق.

حين كان يجرّ أمّي لتظلمني كان أنذل من عرِفت. حين كان يرميني بنقوده يظنّ أنّي لأجلها أصمُت على أفعاله كان أنذل من عرفت. حين كُنتُ أراه مع فتياته صدفةً أو بغيرِ صدفة ويأتي مساء ليضربني تهديداً منه كان بالتأكيد أنذل من عرفت. حين جُرّ للشرطة بتهمة قتل وبرّر غيابه لأمّي أنّي أنا من اشتكيتُ عليه كان أنذل من عرفت. حين صفعني ذات يومٍ أمام ناظِر أخي، ليُبرّر ذلك أنّه يؤدّبني كان أنذل من عرفت. أو عندما وصلت به النذالة لأن يرمي قوارير النبيذ ويُلصِق تُهمة الثمالة بي كي أنال عِقاباً من والدتي وكُرهاً أكثر كان أنذل من عرفت. ذاك دون ذكر اليوم الذي زَعم فيه رُؤيتي أشتري مخدّرات...

ليس لديه في ذاكرتي يومٌ واحد كان فيه إنساناً دون أن يُسبّب لي المشاكل، لم أصدّق أنّي بعد كلّ هذا كنتُ صابرة على كلّ ما كان يحدث، ربّما كان لي أمل أنّ أمّي ستأخذ بحقنا ذات يوم، لكني أشكّ أنّه جعل منها امرأةً عمياء، ربّما أعماها أو ربّما اشتراها، أمّي التي لم تكن تكترث أبداً للنقود برغم طفولتها التعيسة بين لفحات الفقر، صار كلّ حديثها عن المال فجأة منذ أن عَرِفته، أذكر في كلّ مرّة أحاول فيها إخبارها أنّ «عزيز» يُحاول إغراقي في مشاكلَ لا يَد لي فيها ولا قدم، وأنّه يفعل ذلك عمداً، ليصرِف ذهنها عمّا يفعله هو، كنتُ ألقى منها مُعارضة شديدة وجملةً بتُّ أحفظها أنْ «عيبٌ عليّ أن أقذف اليد التي تُطعِمني» أنا لم أطلب منه لا إطعاماً ولا نقوداً، إن كانت النّقود ثمنها يُستبدل كرامةً فسُحقاً لها ولِما يؤول منها...

نزلت من الحافلة، كنتُ أبحث عن «شهرزاد»، يا للمفاجأة، كانت حامِلاً ولم أدرِ لولا لِقائنا ذاك، احتضنتُها بالشعور ذاته الذي كنتُ احتضن به أمّي قبل أربع سنوات حين كانت ترميني الحياة فلا أجد غير أحضانِها، التي صارت أشواكاً أهابُها. أوصلني «محمّد» إلى المطار، أذكر أنّي أمضيتُ الطريق من محطّة «الخروبة» إلى «الدار البيضاء» أطلُب منهما مُسامحتي على إزعاجي لهما.

في لحظة الوداع، طلبتُ من «شهرزاد» أن لا تُخبر أحداً عن أيّ شيء، وأن تكبَح ذلك حتى إذا جاءها يوماً «طوفان» يسألها، أن تُخبرَه أنّ الساكت عن الحقّ شيطان أخرس، وأنّ أخته صمتت طويلاً وحين نطقت كان الثمن مدفوعاً بالعملة الصّعبة. أعطيتُها عُنواني تحسّباً إن زارتني ذات مرّة.

– سأشتاق إليكِ.

– بل أنا من سيشتاق يا «شهرزاد»، كنتِ لي خير صديقة لولا فارق السن بيننا!

– هل انتبهتِ؟ (ممازحةً) لم اكتشف يوماً ذلك! يا إلهي!!!

ضحكنا سويّة.

– لم تُخبريني أنّك حامل.

– سأسمّيها باسمك...

– لا، أرجوكِ. لا أريد لأحدٍ أن يُكتب له النّصيب ذاته من الأحزان.

– كفاكِ! لكلّ نصيبه في هذه الحياة، زِد على ذلك، أنا أريدها أن تكون بِجمالِك ولُطفِك، ورقة مشاعِرك، يا أختي «واش راحلك نتي» (ما شأنكِ أنتِ).

– hayır ...yok... (لا)، صدقيني طرقتِ باباً خاطِئاً، اللطف لا يعني شيئا

حين تُظلمين ولا تستطيعين ردعَ الظلم عنكِ، ورقّة المشاعر.... بالله عليكِ ستُتعبين الفتاة بُكاءً!!!

– سأحاول أن لا أترك لها المجال لذلك.

سمعتُ حينها نداء الرحلة رقم 3150 المتجهة إلى مطار أتاتورك...

– أريد أن أراها يا «شهرزاد»، عِديني أن تأتوني ذات يومٍ.

– أعدكِ.

التحقتُ بالطّائرة، كنتُ أتخيّل دوماً يوم عودتي إلى مسقط قلبي سيكون يوم بهجة، فهذه المرّة رغم أنّي عائدة إلى إسطنبول لم أكن سعيدة. نفدت حقيبة البهجة ما إن خطوتُ خطواتي الأولى وأنا قادمة، ربّما سعيدة لأنّي أخيراً سأغلق باب المشاكل، باب «عزيز»، باب والدتي التي باتت أمَةً له، سأحاول أن لا أحزن بعد اليوم.

* * *

كان قاب قوسينِ أو أدنى أن ينجرف ببحرِ الانهزام، أن يُغرِقه تفكيرُه في بحرٍ من الآلام، لا يأبى بصداعٍ ولا لبناتِ أفكار. يرتشِفُ رشفةً أولى، تهزِم معها ذِكريات أيّام الهنا، أيامٍ مضت وصارت أوهاماً. يزيد غيرَ آبه الثانيّة، لتقترِن بجُيوش الأفكار برأسه، وتُدغدغ أنامل عقله، أنملةً أنملة. ها هوَ ذا ينهار، سقى نفسه خمراً لعلّه سيُفقده ما بقيَ له من عقله، ذاك لشدّة جنونه... يلتفِتُ ضاحِكاً لمن هي أمامه، شقراء كانت أو هكذا خُيّلت إليه، تبتسم له بمكر، فيرُد لها البسمة حين يتذكّر ومَضات مرّة كهذه من قبل... يعود ليَختلي بكأسِه، يا لِحُلوِ مرارةِ طعمِه، يرشفه

كهارِبٍ على عجل، «لن تبقى في كأسي أيّ قطرةٍ منك يا قلق»...

تفلَ على مضض، بعمقِ احتِياجه المُتزايد، «زِدني كأساً»، ابتسم لهُ النّادل، وحمل القارورة الثالثة التي يسقيه منها وكانت ذاك الشراب الأحمر، علّه سيشفي غليل قلبه... سكب الكأس، وكان مع كلّ قطرة يسكبها له كأنّما يسكُب النسيان سكباً، أو هكذا كان يخال...

* * *

– «طوفان» ماذا تفعل هنا، انهض أيّها المخبول...

– ...

– أنت ثَمِل... أيّها المجنون! ثمل؟!

ساعدتُه على المشي بمشقّة، لم أدرك ما الذي سأفعله، أخذته إلى الحمام وفتحتُ صنبور الماء البارد، وصرتُ أبلّ به وجهه، انتفض وصار يُمسِك بي كمن يرجوني. كُنتُ أبكي، لستُ أدري ما الذي يحدث لأخي وهل صار شبيه ذاك النذل «عزيز»؟ ما الذي أصابه، ألم أتركهُ قبل عامين سالِماً؟

صار يُتمتِم، لم أفهم شيئاً عدا أنّه يُتمتِم باللهجةالجزائريّة.

– ماذا دهاك؟

– لا... لا، لا شيء...

– أمُتعوّدٌ أنت على السُكر يا «طوفان»؟

أومأ برأسه، وذاك ما كنتُ أخشاه. «عزيز» آخر في بيتي يُشبه أخي، لا أدري لماذا صفعتُه حينها ولا سبب بُكائي، فلن يتذكّر صفعتي على الأرجح. أخذته إلى غرفته، حتى نام، لكنّي لم أذق النوم في ذاك الفجر، تذكّرتُ أيّام كان «عزيز» يعود ثمِلاً، كنتُ لا أفهم تقبّل أمّي لكلّ ذاك، هل الحب أحمق لهذه الدرجة!!!

ظللتُ أفكّر ذاك الفجر، وعاودتني ذاكرتي ليلة البارحة مع «هيفين»، لمحت بذاكرتي صورةً قديمة، فنهضتُ أبحث عن ألبومات الصور... فتحتُ على قلبي بعض الأوجاع وربّما ليس بعضها بل كلّها، كلّما خنقني البكاء قُمتُ من مكاني لأكتُب، أفرغ طاقتي كلّها، رأيتُ الشمس تزُفُّ يوماً جديداً حامِلةً الكثير من الأمل، علِمتُ حينها أنّ دوري لم يحن بعد في إدراك نصيبي من هذا الأمل، ذات يومٍ ربّما، لكن ليس اليوم...

شارفت الساعة العاشرة حين حضّرتُ القهوة ورُحتُ أوقِظ «طوفان»، قام مُتثاقِلاً، لم ينبس ببنت شفة، كنتُ أراقبه، حين سحب الكرسي وجلس مقابلاً، حين أخذ فنجان قهوته وصار يرتشِفها.

– مُرّة، هل نفد لديكِ السكر؟

– بل نفد الصّبر. اشربها كما هي!

– ما بالكِ تنظرين إليّ هذه النظرة؟

– مُشمئِزّة، ألا ترى؟

– بلى لكن لماذا؟ لستُ أوّل واحدٍ يعود إلى بيته ثمِلاً على ما أظن، زِد على ذلك لستِ في الجزائر، أليس كذلك؟

– لستُ متعوّدة على هذا!

– ما هو؟

– بربّك!!!

– أظنّ أنّه شيء لا يهم. (محاوِلاً تخطّي الموضوع).

– بلى يهمّ يا «طوفان»... أنا لا أقبل في بيتي شخصاً يُذكّرني بأحقر شخصٍ مرّ بحياتي.

– حتى ولو كان أنا؟

– حتى لو كان أنت!

– güzel... (جميل).

بعد صمتٍ طويل مربِكٍ نطق:

– أنا لا أصدّق كلّ ما قيل لي عنكِ.

– وأنا سبق وقلتُ لك إنّه لا يهمني ما قيل عنّي ما دام غير صحيح.

– هل فعلاً سرقتِ نقود «عزيز» وهرِبتِ مع تاجر مخدّرات؟

ابتسمت، لم أجد جواباً لهذه التفاهة، أيّ الأفلام التافهة كان يُشاهد ذاك المخلوق وكيف له اختلاق كهذه القصّة في السخافة، إن كان «طوفان» الذي لا أحد يعرفني في الدنيا بقدره يصدّق خرافاتٍ كهذه، لا والأوقح من لفّق كلّ هذا...

– أظنّ أنّ «شهرزاد» أيضاً لم تعد تصدّقها.

– لم أعد أصدّق حتى نفسي!

– بالطبع... فذاك الخمر وما فعله بك... على أيّ حال، نعم هربتُ مع تاجر مخدرات، لا بل مع أحد الإرهابيين في «داعش»، آه... ألم تلتقِ به في البيتِ بعد، لم

أدرك أنّ البيت بحجم قصر!!!

– كفاكِ سُخرية.

– أنت من بدأ السُخريّة...

– أخبرتني «شهرزاد» أنّ أمّي هي من قالت أنّها لا تريد مشاكل في البيت.

– وأنا معشوقة المشاكل كلّها، ألا تعلم؟

– هَلاَّ تحدثتِ بجديّة؟

– أزعجتني بتفاهاتٍ جئتَ بها من بلادك لتتلوها عليّ.

تركتُه في المطبخ وسكبتُ كوب شاي وخرجت عائدةً إلى ألبومات الصور، صورة والدي القديمة حيثُ كان يسكن، أنا غير متأكّدة، لكنّي وجدتُ ما كنتُ أبحث عنه، صورة للعم ذاته «آلطاي» عمّ «هيفين»، ارتديتُ ثيابي وهممتُ بالخروج حين ناداني «طوفان»:

– إلى أين أنتِ ذاهبة؟

– أهتم بأمور قهوتك...

في قلبي إحساسٌ بالذنب يُراوِدني كيف أرى أخي على ما آل عليه ولا أحرّك ساكِناً، لكن ما الذي بيدي لأفعله وأنا التي بتّ أخشى أن أكون لا أزال أعرف من هو أصلاً.

دخلتُ مطعم «موجفير» (Mücver)، وما إن لمحتني «هيفين» حتى قدمت تسلّم علي، أخبرتها أنّي أحتاجها لأمرٍ ما، فأخذت طاولة وجلسنا.

– أخبريني قبل ذلك، أنتِ كرديّة؟

– لا، لماذا؟

– أبداً، اسمك كرديّ الأصل...

– تمزحين، أليس كذلك؟ هل أتيتِ من أجل هذا؟

– أبداً، لكن أخبريني، هل تعلمين معنى اسمكِ؟

– أظنّ أنّ له علاقةً بالقمر، لكن ما حاجتك به؟

– لماذا لا تصبرين يا أختي، أعجبني اسمك وأدركتُ أنّ معناه هالة القمر وما المانع أن آتيَ إلى هنا لأجل هذا...

نظرت لي باندهاش وحين أدركتُ نفاد صبرها أخرجتُ الصورة وأريتُها إيّاها:

– أَليسَ هذا عمّكِ؟

– بلى، وهذه الصّورة... من أين لكِ بهذه الصورة؟

– هل تعرفينها؟

– أكيد، يا إلهي!

كانت الصورة لثلاثة شبّان، كان أبي أصغرهم، والعمّ «آلطاي» وثالثهم كان صديقاً لهما سافر إلى الجنوب في العام ذاته من أخذ الصورة. كان يحكي لي أبي باستمرارٍ عن أيامه مع صديقيه...

– هذه الصّورة يضعها عمّي في إطارٍ فوق مكتبه، لكن من أين لكِ بها؟

– هل ترينَ من يتوسّطهم؟ إنّه أبي – رحمه الله –.

– فعلاً!!!

أسرعت إلى هاتفها تتصّل بعمّها، وهي تبتسم وتردّد أنّه سيسعد كثيراً.

كانت تُحدّثه بسعادةٍ عارمة، كأنَّها هي من وجدت صديقةً قديمة لها. سألتني أن أذهب معها لألتقي به، فاعتذرت، وعند إلحاحها قلتُ إنّي سأزورها غداً...

– يا لفرحتي... ستتسنّى لكِ الفرصة بمقابلة أولادي.

ويا لتعاستي أنا، لماذا لم أفكر منذ عامينِ بالدخول إلى هذا المطعم.

عدتُ إلى البيت، وجدتُ «طوفان» يقلّب في وريقاتٍ من كتابه، كنتُ أفكّر في ما قالته «هيفين» عن كونِ عمّها بحث عنّا أثناء غيابنا كثيراً لسببٍ تجهله وكان يقول لها إنّه مهم وإنّ عليه إيجادنا أنا وأخي... دخلت أكتب، ورغم أنّي لم أكتنز في اليوم مشاعر حقدٍ ولا حزن، إلاّ أنّي كتبت:

«هل كان الصّمت ما يُريدني الجميع أن أتكفّن به،

لكنّي خُلقتُ من ورق فكيف للحبر أن لا يُبعثِر حروفي...

إنّ القلب وإن فاض انفجرت كلماتي،

فلا عتب...

لا عليّ ولا على من كذب،

ولا لومَ على من ترك كلماتي كأوهام

كسرابٍ وكانت بقلبي أنا أحلاماً

تمنّيتُ لو قيل لي يوماً اصرخي

أبدعي بكلّ الحروف والكلمات

وكأنّ الأسى قالبٌ طُبعت به الذكريات

فكيف للبسمة من طريقٍ تمحو به آهاتي

عُذراً لكلّ من أسكتني بحياتي

فاليوم تنفجر كلّ حكاياتي.«...

– هل أنتِ مشغولة؟

– تحدّث بالتركيّة يا «طوفان»! (دون أن أرفع رأسي عن ورقتي).

– إن أردتُ البقاء هُنا، فكيف أستطيع تغيير جامعتي؟

– هل سجّلت بالجامعة هناك أصلاً أم ليس بعد؟

– عندما أعود أسجّل وأرجع إلى هنا، ما رأيك؟

– رأيي أن تبقى مع من يعجبونك، أليسوا هم من أترفوك بالمال حتّى بتّ لا تعرف الحق من الباطل؟

هناك رفعتُ رأسي لأرى دموع أخي على وجنتيه...

– ما بك؟!

– تعبتُ من كلّ شيء هناك.

– هل حدث لك شيء؟

– ليس تماماً، لكنّي سئِمت.

– لا بأس، لا عليك، عندما تعود وتسجل بالجامعة، فكّر جيّداً وقرّر.

قُمتُ وعانقتُه...

– كفى يا «طوفان» سأبكي أنا كذلك... حسناً، هل تذكر في صغرك عندما

كان يضربك «متين» ابن الجارة «إنجِي»؟ هل تذكر؟

– لا...

بابتسامةٍ أكملتُ وأنا أمسح وجنتيه:

– ألا تذكر «متين»؟ الذي كان يسرق كُرتك دوماً، وحين تُطالبُه بردّها يضربك، كُنتَ تُسرع إليّ وأنت تبكي، فأذهب إليه أؤنّبه وأحياناً أضربه، كي تتوقّف أنتَ عن البكاء.

بانت ضحكته من بين عَبَراتِه، وقد قيلَ لي يوماً إنّ أجملَ الضّحكات تلكَ التي تكون وَليدة رحم الدّموع...

– بالمناسبة، لم ألتقِ بأيّ ممّن أذكر أسماءهم هنا!

– من تقصِد بالضبط؟

– لا أعلم... «نيهان»، هل مازالت تسكن العمارة؟

– كيف تذكرتها من بين كلّ البشر؟ ما زالت هنا على كلّ حال، تسكن الشقة الواقعة أسفل شقتنا.

– لم ألتقِ بها حتى الآن... والخالة «إنجي»؟

– لا أعلم، لم أعد أراها لا هِي ولا ولديْها. كَبِرا وتغيّرا كثيراً، أنا متأكدّة أنّك لو التقيت بهما فلن تعرفهما.

– ولن يعرِفاني أيضاً.

– أشكّ في ذلك فالجزائر غيّرتك كثيراً.

– تتحدّثين كأنّها لم تُغيّر فيكِ أنملة.

– بلى كثيراً أيضاً، فقد غَدوتُ لها زهرةً وقفلتُ منها لا أصلُح حتّى لأُلقّب شَوكاً.

– يا للتشبيه البليغ...

– كفي مزحاً... ألم تُحسّ بالجوع يا ولد؟

– أنتظر منكِ أن تنتبِهي إلى ذلك...

لا أنكرُ أنّ ذلك اليوم مرّ أفضل ممّا مرّت عليه أيّامٌ كثيرة قبله... ضحكتُ برغم كلّ شيء، ابتسمتُ... ربّما استعدتُ القليل من الحياة.

قبل أن أخلُد إلى النّوم أخبرتُ «طوفان» أنّي سأذهب غداً في جولةٍ في ضواحي قرية «سِبجي» (Cebeci)، وسأحاول أن لا أطيل الغياب. لم يسأل لماذا وكيف، أو أين، اكتفى بالموافقة والصّمت...

* * *

«كنتُ أسمع أنيناً بعيداً جداً... لا بدّ أنّه صراخ لا يصلني إلاّ صداه... إنّه أخي «طوفان»، لكنْ لماذا يصرخ...

حاولتُ أن ابتسِم ليَعلم أنّي بخير، لكنّي لم أبتسم من لحظتها، ولم أعد أسمع ذَلِكُم الصّراخ....».

كان يركضُ بين أروقة المستشفى، هَروَل ما إنْ سمع خبر الحادث الذي رمى

أخته في غَياهب العناية المركّزة...

قيلَ له إنّها كانت تعبر الشارع ولم تنتبه إلى مرورِ شاحنة محمّلةٍ بالكتب...

البارحة فقط قرّر أن يعود ليُقاسمها ما بقي من العمرِ والذكريات، البارحة فقط قرّر أن يتوقف عمّا أزعجها ويعتزل الخمر، البارحة فقط...

يصرخ ممسِكاً بكِلتَا يديْه الطبيب الذي تكفّل بحالة أخته:

– لا، لم تمت أختي، انظر يا دكتور إنّها تبتسم، لا أرجوك...

خرج يلعن القدر الذي رماه هكذا...

يسيرُ دون وجهة، حتى دخل الحانة مجدداً.

أمضى ذاتَ شهرٍ بين الدموع، وذات ثلاثٍ بين أروقة كلماتها، مبحراً بين أوراقها...

مضت جنازتها كحلمٍ قصير المدى، حضرته حتى «شهرزاد» وابنتها... التقى أناساً لم يعرفهم لكنّها كانت هي الوحيدة في كلّ تفاصيلهم، بين خبايا نظراتهم ولم يفهم كيف...

ذاك الإحساس المخبول، الألم والوجع بنكهة الحنين. أدرك اليوم فقط أنّها كانت تدرس بجامعة الفنون، فعلم أنّه بالكاد جديد المعرفة بها.

يُغطّي وجهه بِكِلتَا يديه، ويروح يُمشِّط دروب الذكريات، انجرف مع سيلِ الألم، وغرق في بكاء هيستيري لم يستطع التوقف عنه برهةً من الزمن، لَمَح طيفاً ينتظر استفاقته، مسح ينابيعه التي كانت بمُسمّى العيون، واستغرق في النظر... شاب

ثلاثينيّ يقف بمحاذاتِه، يربتُ على كتفه، له سِمةُ مثقف أو لعلّه كان مُحامياً، وقد أطلّت بخجلٍ دمعةٌ على حافة عينِه...

قال له كأنّما لم يستطِع إلاّ زيادة الطين بلّة:

– ليتني لم أرسل لها وليتها لم تفتَح رسالتي حينها...

* * *

«خيبتي يا أمّي لم تكن قصّة حب أرهقتني وأرهقت كاهلي، ولا فقداً ألمّ بحياتي، أو كما تعوّدت هذه الحياة كلّ مرّة على اغتصاب الفرح من قلوبنا، خيبتي كانت أقسى من أن أذرفها بدموعي وأنا اليوم على مشارف الثامنة عشرة، خيبتي يا أمّي لم تكُن تنحني للبسمةِ ولا للضحكات، تذبحني فقط كلّما تذكرتُ بسمتها الزائفة التي كنتُ أحفظها، تعلّقني بحبلِ الموت الأزليّ، لتُحيي ذاكرتها هي بقلبي ولا تذبل، تنشرني ذرّات مرهقة بحجم كلّ شيء حولي، ومهما كان كبيراً لن يكون بقدر ما تحمّلته هي وحملتهُ على عاتقها، ولم تشتكِ.

خيبتي عظيمةٌ يا أمّي، أعظم من حبّ كنتُ أكنّه لك، خيبتي أنّي عُميتُ عن كلّ ما وقع أمامي، عن كلّ مساء سرقتُ فيه كتابات الحزن التي حفظتها، عن يوم ظُلمت وتشتّت فكرها وكنتُ مشلولاً بلا أيدٍ، عن كلّ ليلةٍ اقتربتُ فيها من غرفتها لأسمع نحيبها، ولم أسأل قطّ ما المشكلة، عن آخر يومٍ دلفتُ فيه غرفتها ولم تكن هي هناك لِتُظلِم الدّنيا بوجهي من حينها...

حينها فقط أدركتُ أنّها كانت نور حياتي الذي لن يُشّع في غيابها، حينها فقط ارتمت في أحضاني الذكريات لأشرب كأس الندم مُكرهاً، حينها أحسستُ بقلبي قد

انطفأ...

لم تكن محقّة يا أمّي، مرّة في حياتها لم تكن محقّة، قرأتُ إحدى كتاباتها التي تركتها لي أتحسّسها في غيابها، ولم تكن مُحقّة برُبع حرف من سيولِ كلماتها، من أشواك أفكارها وقد قالت:

«أربّي خيبتي... ليست وليدة رحمي، لم أكفلها ولن أتبنّاها، فقط هيَ وأنا وجهان لعملة الحسرة الصّدِئة... أهرب بها عن الجميع، دعوني أختلي بها، لا أرب لها بغيري فليس لنا ثالثنا والشياطين في حياتي قد رسبت بصفّ الحضانة... كلّما اقتربتُ منها عساني أتخلّص من رواسبها على انكساراتي، نادَت أخواتِها، تتسارعن كضِباع جائعة تطوّقن عُنقي وتحِطنه، تَذُجُّ دمائي من أوردتي وتهلك شرايين عنقي... تلِدُ بيدهنّ خِنجراً تَبُجُّني به، تُهلكني ويُهلِكُني أنّ الجميع معها عليّ... تتأكدّ من موتي، فتنزِل عنّي مطمئنّة ويترجّلن بعدها... أتهاوى وأبداً لا أهوى... خلف اليمّ الذي خلّفته عبراتي سأحيا مجدّداً، ذاتُ الغدر ما عادت تُبكيني مجدداً، ولا حسراتي على نفسي، وتلك خرافات طقوس أتلوها مع كلّ استفاقة، لستُ غارقة بهذا المدّ من العبرات ولن أغرق بِدمي عقب الانهيارات...».

ليست خيبتها يا أمّي، بل خيبتي أنا وحدي الآن، أهلكني كلّ شيء حولي، غِيابها قبل هذا كان يُروى من نبيذ الصّبر والآن يُسقى بشراب العذاب...

لن تكون هنا بعد الآن، ولن أشرب قهوتها التي جعلتني أدمنها بعد فراقها، لن أبكي كما كنتُ صغيراً حين تختفي ونحن نلعب الغميضة، وتسمع نحيبي فتظهر وتحضنني، ولن أجد عطرها الذي كنتُ أتدلّل لأجل أن تقترب منّي لتقبّل خدّي وأشمّه... وما الذي عساني سأفعله حين كلّ مرّة ألمح فيها قِلادتها، هل أبكي على من كانت تبكي هي عندما تُمسِكها في يدها أم أبكي على من كانت القلادة لا تُفارق عنقها... رُفع قلمها يا أمّي وجفّت كتاباتها...

ماتت يا أمّي، ولم أفعل شيئاً لإسعادها، كتَبت يا أمّي حتى قتلتها الكتب، ولم تتكرّمي بحضور جنازتها، ماتت وكنتُ أحمق كي لا أنتبه لسبب غيابها، أحمق كيْ لا أسأل عن الحزن الذي رسم خندقين أسفل عينيها، لا بل أحمق وبلا رحمة حين مَضَت بعيداً عنّي ولم أسأل عنها حتى بلغ السيلُ الزّبى، وحين لم أكترث لقصّتها.

لم أفهم بعدُ يا أمّي لِمَ كلّما ظننتُ أنّي أنهيتُ قراءة أوراقها ألمح مجموعةً أخرى لم تُقرأ، أكادُ أصدّق ذاك الثلاثينيّ الذي أخبرني في جنازتها أنّني سأُمضي ما بقي من عمري أحصي كُتُباً خلّفتها هي... وليتني التقيتُ به مرّة أخرى ولو صدفةً بين أوراقها، فلم أجد له سراباً ولا ثرى حروف رغم أنّ كلامه ربما يوحي أنّه يعرفها أكثر منّي...

اليوم أدركتُ يا أمّي سبب تعاستها، فهل لي من وقت بدل ضائع أرجوه منها؟ هل لي من دمعةٍ تنفعُني لتُعيدها عساني أستسمِحُها؟ ماذا تُفيد الآن أنهارٌ لو ملأتها دموعاً؟

هل من شيءٍ يسترِدّها؟ لا شيء يُعيدها ولا شيء سيملأ ذاك الجبّ العميق الذي تركتهُ في قلبي على فراقها، يا ليتني فقط اعتذرتُ نيابةً عن كلّ الدنيا، يا ليتني عدتُ لطفولتي ولِفضولي وسرقتُ كتاباتها كما تعوّدتُ حينها... وأدركتُ كلّ شيء واستدركت قبل مُفارقتها.

الخيبة يا أمّي أنّ كلّ ما حولي جعلني أعمى، وجرّني بعيداً عنها.»

إلى فيروز08/11/2016

طوفان

«نفدت أقلامي السوداء،

وحِبري خطّ دروباً من ثنايا انكسارات،

فهَلاّ ملأتُم جُعبتي حِبراً وأقلامي فحماً

لِيُتبع...»